سِيَاجُ الخَوْفِ

رواية

عطا عفيفي

باقي
للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد نافع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: سياج الخوف

تأليف: عطا عفيفي

مراجعة لغوية: مها السيد

التنسيق الداخلي: صبرينة غلمي

تصميم الغلاف: إيمان صلاح

رقم الإيداع: 7446

تدمك:978-977-85484-2-6

جميع حقوق محفوظة ©
لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storge and retrieval systems, without permission in writing from the publisher,except by reviewers, who may quote brief passages in a review

إهداء:

إلى العقولِ الجميلةِ التي احتوتْني.

إلى القلوبِ النقيةِ التي أضاءت لي الطريق.

إلى أساتذتي في الأدب والفنون.

إلى أسرتي الغالية.. وأصدقائي الكرام.

أُقَدِّم لهم هذا الوليد الجديد.. سِيَاج الخوْف

عطا عفيفي

مقدمة

في ليلةٍ باردةٍ من ليالي شهر يناير، وقفت سيارة أمام مدخل القرية ترَجَّل منها مُتَسَرْبِلاً بالظلام، يغطى جسده كاملًا بِعَبَاءة سوداء لا يظهر منها ما يُعلن عن شخصيته أو كُنْهِ، وأخذ يلتفت يمينًا ويسارًا وكأنَّه يتأكد من عدم رؤية أحد له. ثم تحرك في المَمْشى الطويل المُحَاط من الجانبين بحقول القصب المرتفعة، كأنَّها حوائط إسمنتية تحدد معالم هذا الطريق الذي يصل بك إلى الأضواء الصفراء الباهتة على مشارف القرية، لا تسمع غير نَقِيق الضفادع الذي يأتي من الجداول الصغيرة بين الحقول الزراعية، بينما صفير الهواء المرعب وحَفِيف الأوراق واصطدامها بالسيقان تزيد من معدل الإدرينالين في الدم، بينما أصوات صَرْصَار الليل تكمل سيفونية الرعب؛ فتشعر وكأَنَّ أحد يتربص بك فَتَسْرِي القُشَعْرِيرَة في جسدك من مقدم رأسك إلى أَخْمَص قدميك... نادرًا ما تجد أحدًا من أهل القرية في هذا

الوقت من السّحَر يسير في هذا الطريق، فجميع أهل القرية عندهم استعداد مُسْبَق قد نما مع تربيتهم وكأنَّه قد خُلِطَ بحليب أثداء أمهاتهم؛ لتصديق كل الحكايات والأساطير عن الجن والعفاريت التي تأتي من المقابر المجاورة، أو تخرج ليلاً من كهوف الجبال المُلاصقة للقرية؛ كي تلعب وتمرح هي الأخرى، فالنهار للإنس والليل للجِّن والعفاريت هكذا هو العدل. ولكنْ هذا الشبح الذي يسير في خُطوات متمايلة هادئة واثقة تجعل من يراه في هذه اللحظة سيُقْسِم بكل الأيمانات أنه قد رأى عفريتًا ينفش جناحيه ويطير كالخفاش، أو أنه يتحرك ويمشي كما يمشي البشر كأنه يبحث عن فريسة ما قد تكون تائهة: كطفل كان يلعب مع أقرانه ونسي نفسه، أو رجل حظه العاثر جعله يتأخر في العودة ليلًا فيلهو به حتى الصباح. فليس هناك إنسان يجرؤ على الخروج من داره أو يمشي في طرقات القرية في هذا الوقت. فالخوف الشديد، والرهبة من الحكايات والأساطير التى تتناقلها الألسنة في القرية عن الجن والعفاريت الذين ينزلون من

الجبل ليلًا ويمرحون في القرية حتى آذان الفجر؛ قد أثَّر كثيرًا في نفوس الصغار والكبار وكوَّن شخصياتهم، هكذا تربى أبناء القرية على سماع وتصديق القصص الخرافية والوهمية من أجدادهم وجداتهم قبل النوم..

وقف الشبح قبل أنْ يصل إلى مَشارِف القرية، وأدار رأسه يلتفت يمينًا ويسارًا مرة أخرى، ثم دَلَفَ في طريق صغير ضيق بين الحقول ومضى فيه بثقة وكأنه يعلم خُطواته؛ حتى لاح له من بعيد ضوء خافت ينبعث من نافذة صغيرة، حين وصل إلى مصدر الضوء كانت هناك عُشَّة (خُصّ) مبنية بأعواد الغاب والطين، ذات باب من الصفيح بإطار خشبي كان الدخان يخرج من نافذته الصغيرة تشتم فيها رائحة التبغ المخلوط بالحشيش، طرق الباب طرقات خفيفة ثم دخل وأغلقه خلفه.. من هذا الشبح؟؟؟

يُعَدُ مصطفى الزيان "- سليل عائلة الزيان ذات السمعة الطيبة والذِّكْر الحَسَن في كل مدن وقرى محافظة بني سويف - وهوآخر فرد فيها - من أعيان القرية ومثقفيها، له مكانة حب واحترام وتقدير في قلوب أهلها، و من القلائل في القرية الذين نَهَلُوا من الثقافة والتعليم شوطًا ليس بقليل، فكان حُجَة في المنطق، لا يخشى في الحق لومة لائم؛ فجعله ذلك في صدام دائم مع قرارات العمدة الجائرة على المزارعين من أهل القرية فيقف بجانبهم حتى يأخذون حقوقهم، الأمر الذي جعل العمدة يضيق به ذرعًا وحسدًا وحقدًا عليه، وعلى حب الناس له ولعائلته، وقد جُبِلَ مصطفى على أنْ يُسَارع دائمًا في الخيرات وإرضاء الناس، ليس سعيًا لنَيْل منصب أو جاه، وإنما يَبْغى وجه الله.، هكذا كان يقول دائمًا. كان طويل القامه مثل أبائه وأجداده، قمحيّ البشرة، له شارب رفيع أنيق يزيد وجهه جمالًا وهَيْبة وحضورًا قويًا في كل مكان يَحِلُّ به.، اشتهر بيته بالكرم والجود، وكان هذا البيت مُلْتقي المشايخ والمثقفين في القرية والقرى المجاورة. يجلسون عنده في حلقات ذكر، أو مناقشات في الأدب والثقافة، وكانت هذه اللقاءات تجرى الخميس الأول من كل شهر. فكان بيته كالصالونات الأدبية مثل التي تنتشر في المدينة..، وبالرغم من ذلك عندما كان يَخْتلي بنفسه كان يشعر بالوحدة؛ لعدم وجود أبناء من صُلبه يحملون اسمه ويكونون امتدادًا لهذه العائلة التي أوشكت على الانقراض، ولكن مشاعره وألمه يُخَبِئْها داخل قرارة نفسه؛ حتى لا تراه زوجته في هذه الحالة فتَغْتَم هي الأخرى وتشعر بالذنب؛ حتى أصابه شيء من اليأس. فالأيام والسنون تجري برِعُونة كقطار أحمق يرفض التوقف، وزوجته المسكينة باتت على مشارف الأربعين، لم تكن (عائشة) تعاني من شيء يُؤخر الحمل فقد ذهبت معه إلى الكثير من أطباء المدينة وتم الكشف عليهما؛. وكان نفس الكلام الذي يسمعونه في

كل مرة بخُلُوهم من أي مانع للخلفة، وبرغْم قلقه الدائم الواضح للعَيَان في أنْ يكون هو السبب لم يتوانَ لحظة في إرضائها، وإسعادها، وبثَّ الطمأنينة في قلبها بحُنوه عليها وقوله لها أنَّ كل شيء بأوانٍ. ولكن (عائشة) الصابرة الجميلة لا تنفك في أن تقول لزوجها بأنْ يتزوج بأخرى كي تأتي له بالولد.، أُسْوَة بالعمدة الذي تزوج حديثًا على زوجتيه.، فيتذمر مصطفى من قولها ويقول لها:

- لا أريد أن أسمع منك هذه الحكاية مرة أخرى. لو أراد الله لي ولدًا فسوف يأتي منك وليس من أخرى. وإذا لم يرد فهذه مشيئة الله

وتمر الأيام مُتَوَاتِرة؛ حتى كانت المفاجأة الكبرى عندما أخبرته عائشة بأنَّه سوف يصبح أبًا. وكم كانت فرحته عارمة، فأخذ يرقص في صَحْن الدار ويحمل زوجته ويدور بها وهو الوقور الملتزم الصارم في شخصيته الجادة. كل هذا تغير في لحظة وأصبح كالطفل الصغير الذي يفرح بملابس العيد. وانتظر الصباح بصبر نافذ فسافر خصيصًا بسيارته إلى البَنْدَر الذي يبعد عنه مسافة عشرين كيلو مترًا؛ ليحضر طبيبًا مخصوصًا ليطمئنه ويؤكد على بشارة زوجته له. حتى أعلمه الطبيب بصدق البشارة. فأغْدَق عليه المال الوفير وهو في حالة طاغية من السرور، وانقطع بعدها لخدمة رفيقة عمره فكان يأتى لها بالطعام حتى غرفتها ويجلس يطعمها بيديه وهى تنظر إليه مُغْتَبِطة وقد زاد حبه في نفسها، ومَلَكَ عليها شِغَاف قلبها.. فمازحته قائلة:

- أكُل هذا من أجل الولد..؟! قد تكون بنتًا

فسكت مصطفي وهو ينظر إلى السماء ويقول لها:

- كل ما يرزقنا به ربنا هو خير ونعمة. الآن صحتكِ أنتِ هي الأهم لديّ،.بينما قلبه يتمنى أنْ يكون أول خَلَفَه ولدًا يكون له سندًا وعزوةً.

مرت الشهور سريعة وأشرق وجه المولود إلى الدنيا..، وكم كانت سعادته عندما علم بجنس المولود، فحمله بين ذراعيه ورفعه لأعلى وكبَّر في أذنه اليمنى، وأخذ يحدثه وكأنَّ الوليد يسمعه:

- أنْرَت يا ولدي الدنيا كلها، اسمع يا ولدي: أنا ليس لي أخٌ، فأنت أخي، ليس لي ظهْرالآن ولا سندٌ فأنت ظهري وسندي، أريدك رجلاً صلباً جَلَدًا لا تهزمك الليالي، ولا تكسرك حوادث الزمن. اكبر بسرعة من أجلى لتكن خليلى، وسميري، وقوتي حين ضعفي. اكبر بحول الله وقوته.

ثم قبَّله ووضعه على صدر أمه، نظرت إليه أمه ودموع الفرحة تَنْسال على وجنتيها وقالت:

- افتح عينيك يا سمير لترى جمال وجه أبيك.

تَطَّلعَ مصطفى إليها باسمًا وقال لها:

- .أرى أنَّك قد اسميته سميرًا.

قالت له وعيناها تَفِيض بالدمع وابتسامة رضا تملأ وجهها:

- هو سميرنا فليكن سميرًا..
- هز مصطفى رأسه بالقبول وقال:
- فليكن سميرًا.

سكن الليل وهجَعَت الحيوانات الشاردة في شوارع القرية الضيقة، ولم يبق إلا صوت نَقِيق الضفادع الذي يأتي إلى الأسماع كأنها فرقة موسيقية تعزف لحنًا ناشزًا. واستلم القمر مأموريته المعتاد على تأديتها حتى وَهَنَت قواه بمرور أيامه وانْزَوى تدريجيًا يختبئ خجلاً حتى يختفي تمامًا، ثم يُعيد الكرة من جديد في حضانة الليل حتى يصير يافعًا مغرورًا ببهائه قوي في ضيائه، يجلس في عليائه نشوانًا بِشِعْر الشعراء وغناء المادحين لجماله. خاصة في قريتنا والقرى المجاورة فهو يهرب من المدينة التى أنكرت فضائله مع اختراع الكهرباء واستبدلته بمصابيح إضاءة صفراء اللون وضوضاء تَصُم الآذان، فآثر السكون منسحبًا إلى قوم مازالوا يتغنون بقدومه وينتظرونه انتظار الحبيب، هذه هي سمة الليل منذ أن خلق الله الليل والنهار وخلق الشمس والقمر، فهما في توالٍ عجيب منظم دقيق فارتبط الليل بالقمر والشمس بالنهار، كُلٌ يؤدئ دوره بأمانة واقتدار.

يَشُقُّ السكون الهادئ من الرَمَق الأخير من الليل في قريتنا الصغيرة صوت مؤذن المسجد الوحيد بالقرية، يأتي صوته من بعيد كإنذار لنهاية آخر أحلام الليل ليقرر أَنَّ " الصلاةُ خيرٌ من النوم " معلنًا عن مولد فجر جديد.

ما بين الغفوة التي تسبق الاستيقاظ والاستسلام لحلاوة النعاس، يعمل عقل سيدة المنزل وكأنك وضعت قَابِس الكهرباء فجأة؛ فتنتفض الحواس وتنشط الدماء في الشرايين المنتشرة في الأطراف وتواجه أثقل شيء يقابلها كل بداية يوم جديد. هو أن تترك دفء الفراش وحرارة جسد زوجها، واحتوائه لها وهي تغوص بين ذراعيه مستسلمة في دِعَة وطمأنينة. ما أحلى هذه اللحظات التي تسبق اليقظة! ألا ليت الليل يمتد

لسويعات أخرى ولا تترك هذه الجنة الدافئة. ولكن هَيْهَات لا بد أنَّ تقفز خارج هذا الحيز الدافئ فورًا. فجدول الأعمال دائمًا مُكْتظ بدءً من هذا التوقيت بالذات حتى الغروب، الغرفة مازالت مظلمة أغمضت عينيها بُرْهَة ثم فتحتها لتتبين معالمها، وعلى هَدْى ضوء رفيع من المصباح المُتَدلِّي من سقف المدخل يتسلل من الفتحة الصغيرة في باب غرفتها، مدت يدها تتحس مكان زر الإضاءة حتى ضغطت عليه، فانزاح الظلام من الغرفة وظهرت معالمها قد اعتادت حواسها الداخلية على ضرورة اتخاذ القرار في اللحظة المناسبة، فانْسَلَّت من تحت الغطاء لتتحسس برجليها نعالها، وبعدما احتلت قدميها تجويف النعال عدَّلت من ثيابها الملفوفة على جسدها، ورفعت شعرها المنسدل على وجنتيها إلى أعلى، ووضعت عليه غطاء رأسها وربطته بإحكام، وتناولت جلبابها المعلق على مسمار خلف الباب فارتدته ثم مالت على السرير النحاسي المذهب الأعمدة، ومدت يدها برفق لتمسح على رأس زوجها. وبصوت هادئ توقظه: " هيَّا يا حاج.. الفجر قد حان وقته "

في كل ليلة في نفس التوقيت قبيل آذان الفجر بدقائق وكأن منبه مضبوط. يضج رنينه المزعج في أعماقها ينهي لها أحلام الليل لتبدأ حقيقة النهار بنشاطه وحركته الدءوبة،.يحلو لها أنْ تُوقِظ زوجها لصلاة الفجر، ويحلو لزوجها التعمد بألَّا يقوم قبل أنْ تمتد إليه يدها الحانية بأناملها الرقيقة الصغيرة وكانها تنقل إليه شحنة من نشاطها. يفتح عينيه ناظرًا لسقف الغرفة متمتما " الحمدُ لله الذي أحْيَانَا بعد ما أَنْ أمَاتنا وإليه النُشُور " هكذا دومًا كان يردد هذا الدعاء. ثم يلتفت إليها باسما ويقول:

- صباح الخير ياعائشة، يا أجمل مُنبه في الدنيا ".

فَتَرِن ضحكتها الصافية في أرجاء الغرفة. يقولون أنَّ ابتسامة الرجل في وجه زوجته صباحًا دليل على محبة الله لها ومحبة زوجها، وهذه الابتسامة اليومية هي مِفتاح الخير والطمأنينة لكل من في البيت، هذا هو شعارها الذي ترددده لصديقاتها عندما تأتي إحداهن تشتكي لها زوجها، أما عائشة فكانت تكتفي بكلمات رجُلها الصباحية المشجعة المرحة، فَتَشِيع في نهارها البهجة والنشاط طوال اليوم، وتملأ البيت مرحًا وسرورًا وجدًا وعملاً، هكذا هي دائمًا مثلها مثل الكثيرات من الزوجات في القرية. فهي لا تَعِدُّ نفسها قد صُنعت من عجينة أخرى غير العجائن التى قد صُنعن منها، بالرغم من كَوْنها زوجة ميسورة الحال وامرأة رجل من أغنياء القرية وتسكن دارًا أشبه بالقصر، فقد بُنِيَت على مساحة كبيرة استقدم لها مصطفى الزيان البناءين من المدينة، وقدُصمِمَت كى تكون فيلا أنيقة لا تختلف عن بيوت أهل المدن وفيللهم. فبُنِيَت على ثلثي المساحة من طابقين والثلث الآخر صُمِم كحديقة زُرِع فيها من الأشجار، والنباتات، والزهور مايشرح القلب وتطيب إليه النفس، يتخللها ممر طويل يتسع لمرور سيارته حتى تصل إلى مساحة واسعة أمام مدخل الفيلا، في هذه المساحة بُنِيَت نافورة ذات حوْض دائري مغطى بالسيراميك المنقوش بزخارف إسلامية، أما مدخل الفيلا فيقابلك عدة درجات من الرخام فتجد عمودان يرفعان المدخل الذي صُمِم على شكل حنية دائرية، وعلى جانبي الباب كنبة طويلة وعدة كراسي من الخيزران، رُصَت حول طاولة صغيرة، وتطل على حديقة المنزل يفصلهما سور البلكون المرتفع عن الأرض بعدة درجات، وكانت هذه البلكون هى الجلسة المعتادة لزوجها الحاج مصطفى حيث يلتقي الفلاحين الذين يعملون معه، ويقيم فيها الندوات الشهرية.

كانت عائشة مَلِيحة الوجه يُجَمِّل وجهها عينين واسعتين ذات لون بني، وأنف دقيق صغير، وثَغْر باسم يكشف عن أسنان بيضاء. ممشوقة القوام تميل بشرتها إلى اللون الخمري، تراها لأول وَهْلة فتترك لديك هذا الانطباع بأنَّ هذه سيدة من أشراف القوم، حيث يدل مظهرها علي النعمة والثراء دون إسفاف أو تبذير. نالت من التعليم قِسطًا جعلها تقف على تربية أولادها ومراجعة دروسهم. كل مَنْ في القرية يُكِنُّ لها مشاعر طيبة واحترام؛ لتواضعها وكرمها الزائد مع الجميع، فأصبحت مَحَطَّ القلوب وسببًا لفك كُرْبات الكثيرات من المحتاجات من نساء القرية، لا ترد أبدًا سائلاً دق بابهم ، ولا تدع مَغْبون فريسة غَبَنه وكُدره، فكانوا يُبَجِّلونها ويقدرونها ولم لا؟ أليست هي سيدتهم المحبوبة طيبة القلب والسَّرِيرة كريمة الحسب والنسب.

أما زوجها فكان لا يقل عنها من دَمَاثَة الخلق والكرم، فكان يشجعها دائما، ويُثْني عليها لِمَا تفعله لأهل القرية من المَعُوزين والفقراء ويردد دائمًا قولته المأثورة: " يا عائشة هذا مال الله ونحن فقط مجرد مُسْتَخْلَفين فيه. "

تصعد عائشة الدَرَج الداخلى المؤدي إلى الطابق الأعلى؛ لتوقظ ابنها سمير كى يرافق والده للذهاب إلى المسجد، فالطفل يجب أنْ يتعود على صلاة الفجر منذ صغره؛ حتى تكون سهلة عليه إذا كبر، فالتعليم في الصغر كالنقش على الحجر. هذه المقولة التي قد أقرَّ بها الحاج مصطفى في البيت ويواظب على قولها دائمًا، فلا تأخير ولا اعتذار إلا للضرورة القصوى. وبعد أن ينتهيا من الصلاة يعودا مرة أخرى ليخطفا سِنَة من النوم..، تكون عائشة قد انتهت من صلاتها وأيضًا من إعداد إفطارًا

خفيفًا لعائلتها الصغيرة من الخبز المسخن على الصاج مع الجبن والقشدة، وما يتوفر من خيرات الأرض.

ويبدأ مصطفي الزيان يومه بفنجان القهوة الصباحي المصنوع من البن المحوج بأطيب العطارة، تصنعه له عائشة على لهب مَوْقد الكحول الهادئ "سبرتاية"، يُقْسِم لها دائمًا أنَّه لم يَذُقْ يومًا أحلى منه ولا أطعم سواء في بيت من بيوت القرية، أو حتى في مقهى من أشهر المقاهي في المدينة، فتبتسم مُغْتَبِطة كأنَّها فازت بالجائزة الكبرى، وتنظر إليه بنظرات كلها رضا ومودة..، وتمر الشهور والسنوات سريعًا وكأنَّ الله أراد أنْ يُكافِئ مصطفى على صبره وشكره له، فأنجبت له زوجته ابنة جميلة أسماها فاطمة، هذه الصغيرة الجميلة المُشاكِسة التى تأخذ من صفات أخيها الكثير.

الهواء المنعش يداعب أوراق أشجار المانجوالمرتفعة والبرتقال. ورائحة الياسمين المنبعثة من زهور شُجَيْراته المتراصة حول سور الحديقة، تحملها نسمات صباحية؛ لتعطر به أَرْوِقة المنزل، فأول ما تقوم به عائشة هو فتح نوافذ المنزل في الدور الأرضي؛ ليستقبل أولى نسمات الصباح وأشعة الشمس المذهبة وتغيير جو الخمول والكسل.

الشمس تخرج على استحياء من مَكْمَنها؛ لترسل أشعتها الناعسة تتسرب في دلال إلى نافذة غرفة سمير في الطابق الثاني المطلة على الحديقة، هذه الغرفة الصغيرة المفروشة بالبُسُط وبأثاث بسيط مناسب لغرفة طفل في العاشرة من عمره: كدولاب خشبي قصير بضلفتين. إحداهما مثبت عليها مرأة طويلة، يتوسط الغرفة سريرًا صغيرًا أعمدته من النحاس الأحمر، ويتدلى من سقف الغرفة " ناموسيَّة " بيضاء خفيفة تنساب

باتساع؛ لتغطي كامل السريرمن كل الاتجاهات، وكأنها محارة كبيرة تحتض لؤلؤة ثمينة، وبجوار السرير مكتب خشبي صغير عليه مفرش من القماش المزخرف. يضع سمير يديه النحيلتين على عينيه تحاشيًا لهذا الضوء الذي اقتحم غرفته المظلمة من فتحات الشيش، فبدد ظلامها فينقلب إلى الجهة الأخرى متحاشيًا إيَّاه، ويغلق عينيه علَّه يستزيد قسطا آخر من النوم قبل أن ينادِى عليه والده مرة أخرى للنزول للإفطار، ثم الخروج معه للمرور اليومي على حقولهم والفلاحين الذين يعملون فيها، ولكنْ هَيْهَات كان إصرار مصطفى محطمًا لآخر أمل له في اقتناص دقائق أخرى من النعاس، فيتذمر في حركات عصبية ويضرب الهواء بيديه ورجليه وكأن الشمس وصوت أبيه اتحدا؛ لينغصا عليه نومه وكسله اللذيذ.

فيقول في نفسه: مالي أنا والمرور على الأرض والفلاحين، أنا مازلت طفلاً صغيرًا، ياعَالَم أريد أن أنام، ولكنْ وَقْع خُطوات أمه المعتادة على درجات السلم الخشبي تعيد إليه شيئًا من الهدوءه واستقرار النفس، وتطل عليه من الباب كشمس أخرى أشد إضاءة من الشمس القابعة خلف شباك حجرته، ولكنها شمس لا تؤذي العين بل تضيف دفئًا في نفسه وتملأ جوانب الغرفة سعادة وطيبة وكأنه يستنجد بها وهو يعلم أنه لا جدوى، و تمتد أصابع أمه تحت طبقات الناموسيَّة المنصوبة على سريره كانها خيمة بيضاء شفافة لتحفظه من لسعات البعوض فتزيحها، وفي حنان وابتسامة تداعب شُعَيْرات رأسه المجعد، وتطبع قبلة على جبينه وبصوت هادئ تَحُثَّه على القيام؛ كى يتناول الفطور مع والده، وبصوت أقرب للبكاء يستعطف أمه كي تقف إلى جانبه: " يا أمي أريد أن انام، لا أريد الفطور، ولا أريد المرور على الحقول ".

ولكنْ لا مفرَّ عندما يسمع صوت أبيه مناديا مرة أخرى.. "

هيَّا يا سمير، سنتأخر على المرور"

مادام أبوه قد وجَّه إليه النداء، فيجب أن يُلَبِي. فينظر إلى أمه ثانية متوسلاً أنْ يعفيه والده من هذا المرور اليومي، ولكن أمه تشير إليه أنها مثله لاحول لها ولا قوة وتقول له:

- أنت تعرف والدك. هل يجرؤ أحد أن يتقاعس عن أمر قد أمره؟.. قم يا بني، الله يرضى عنك "

ثم تحتضنه وترفعه في دلال وتدور به في فضاء الغرفة؛ حتى تسمع ضحكاته المجلجة وينزل معها الدرج وهو يصيح:

- يارب العُطلة الصيفية تنتهي بسرعة، وأعود للمدرسة واستريح من هذا العذاب "

بينما ضحكات أمه ترتفع وتقول له في همس:

- أسكت كي لا يسمعك أبوك فيغضب منك"..

كانت نشأة سميرالزيان في أسرة ميسورة تمتلك من الأراضي الزراعية ما تجعلها تنافس أراضي العمدة سلامة الغنيمي، وبالرغم من ذلك كانت حياته خليط من الالتزام والتدريب على قوة الشخصية منذ نعومة أظفاره، فكان والده يعده ليكون خليفته الذي سيرث من بعده الكثير والكثير من الأراضي الزراعية، والدُّور والأموال وسيرث أيضًا اسم عائلة الزيان أعرق عائلات القرية؛ لذا فإنه يُنكر عليه اللعب وإضاعة الوقت مع أقرانه من الاطفال و يطلبه دائما ليجلس بجواره في مجالس

الرجال؛ ليسمع ويتعلم وينشأ على المنطق والحُجة وكيفية إدارة الحوار. و دائمًا مايقول له مشجعًا:

- أنت ابني الوحيد، وامتدادى في الحياة، جذوري الضاربة في عمق الزمان، وحامل راية عائلة الزيان.

والطفل لا يَفْقَه ما يتكلم به أبوه، ولكن يدخل في روْعه أن كلماته هامة ويجب حفظها فيرددها أمامه كالببغاء، كان يمشي بجواره " كالمسخوط" يلبس مثل أبيه في كل شيء، فتجده قد ارتدى الجلباب، والطاقية، والشال الأبيض، الملفوف عليها، ويضع عَباءَة صغيرة تناسب طوله وحجمة على كتفيه، وينتعل نعْل يسمى "بُلْغَة" مثل ما يرتديه أبوه، لا ينقصه فقط إلا الشارب تحت أنفه الصغير، وعندما يسمع ضحكات أقرانه من الصبيان في شوارع القرية يزداد في داخله كُرهًا شديدًا لهذا الدور الذي فُرِض عليه فرضًا، كَرِه هذا الثوب، وكَرِه أنْ يكون كبيرًا، حتى بات الوقت الذي يُجالس فيه هؤلاء الكبار والشيوخ وهو لا يَفْقَه شيئًا ولا يريد أن يَفْقَه شيئًا من أسوأ الأوقات. التي يعيشها. كان الغضب يتسلل إلى جَوَانِحه وقلبه الصغير، وبدأ يحسد أخته الصغيرة فاطمة التي تلعب طوال اليوم بعروستها المصنوعة من القطن المغطي بالقماش، أو مع صديقتها المفضلة رجاء، وباقي أقرانها من البنات الصغار. وكلما تَهْفُو نفسه للعب معها يرِنُّ صوت والده في أذنه.. " أنت رجل ولستَ بطفل صغير يلعب مع الأطفال ".. ولكنْ ماذا يفعل؟ وهولا يملك حق الرفض أو إبداء الرأي فتَعوَّد على الصمت والصمت المطلق، كان حواره دائمًا مع نفسه. وأفكاره الصغيرة تتلاشي في متاهات عقله حتى صرخاته المعترضه تجد طريقها إلى المجهول في أعماقه، ولكنْ بالرغم من شدة والده في تربيته وحرصه أن يكون نسخة منه كان حنونا عليه يشعره

بقيمته وذاته في المكان، ويسأله رأيه أمام الكبار، بل ويأخذ به أحيانًا فبدأت مداركه تتفتح شيئًا فشيئًا، وبدأ الغضب الذي بداخله يتلاشى تدريجيًا كلما تقدَّم في عمره أيامًا ويَحِل محله تبصرًا وذكاءً وفَهْمًا لمُجْريات الحياة ومشاكلها، واكتشف أنَّ لوالده وجهًا آخر وجه الأب العطوف المتفاني في إسعاد أسرته، وأنَّ هذه الشخصية الجبارة والمسيطرة في أمور الحياة حوله تمتلك قلبًا كبيرًا بداخلها يحركها ولكنْ بتعقل ورَوِّيَة. وكانت سعادته الكبرى عندما يصطحبه إلى المدينة؛ ليشتري له ما يحتاجه من ملابس، وكتب، وحلوى، أما لُعب الأطفال فكانت خارج قائمة المشتروات دائمًا، وإذا ما شاهد والده نظرات الحاجة في عينيه يبادره بقوله:

- لُعب الأطفال للأطفال، إنما أنت رجلٌ، ورجلٌ يُعتَمد عليه.

فيبتلع الطفل كلمات والده ويسكت مُرْغَما، فالطفل دائمًا في أعماقه طفل، ولكنْ بالرغم من هذا الحصار حوله وهذا الطوْق المُسمى بالرجولة، كان يتسلل من مجلس أبيه أحيانًا إلى مكانه المُحبب على شاطئ الثُرعة تحت شجرة الجُميز الضخمة على رأس حقلهم. يشاهد الفلاحين وهم يروحون ويغْدون يسمع غنائهم وأصواتهم العذبة..، وعلى صوت خرير السواقي وموسيقى أصوات الفلاحين كانت يداه تبحث دائمًا عن طين الأرض فيشكله بأنامله الرقيقة؛ لتخرج صورًا مجسمة لحركة الفلاحين وحيواناتهم،. وكأنَّ أباه قد حرمه اللعب بألعاب بلاستيكية كأطفال القرية؛ ليتيح له اللعب بشيء آخر، وكانت الرغبة في اللعب مُلِّحة وبشدة..، فأصبح الطين شغله الشاغل في ألعابه ولم يدر أنَّه يومًا سوف يكون للطين معه شأنٌ آخر.

عندما ترى إبراهيم التهامي، تجده رجلاً نحيفًا متوسط الطول، يشد انتباهك له عظام وجهه النافرة، وأسنانه الصفراء الغير مستوية من مضغ الأفيون وشرب الشاي وتدخين الشيشة. عنده نَهَم وشَرَه شديد للأكل تخال بأنه جوعان منذ آلاف السنين. تُرْهبك دائمًا عيونه الضيقة الغائرة كعيون ثعلب ماكر واسع الحيلة. ويُضْرَب به المثل في الدسائس، والمكائد، وكتابة الشكاوي الكيدية، وإرسالها إلى المسؤولين في البندر..، لا يُعَرف له نسبًا ولا يمت بصلة للعائلات الكبيرة في القرية. يشعر دائمًا بالدونية بدأ عاملاً أجيرًا عند عمدة القرية، حتى حفر لنفسه مكانة عند سيده بتجسسه على من في القرية، وتوصيل كل معلومة يحصل عليها، وكانت صفاته وأساليبه الملتوية قد أرْهَبت الجميع منه حتى عمدة القرية نفسه، فاستماله إلى حاشيته وأسْبَغ عليه الخير الوفير؛ اتقاءً لشره فسعى في تعينه خفيرًا خصوصياً له في بادئ الامر، ولكن قدرات التهامي الشيطانية كانت أكبرمن كونه مجرد خفيرًا نظاميًا بكثير، فأُعْجِب به العمدة أيَّما إعجاب وقال له ذات يوم مازحا:

- لولا مركز شيخ الخفر مشغولا كنت عينتك فيه فورًا.

فضحك التهامي حتى بانت أسنانه الصفراء وقال له:

- طالما حضرة جنابك قلت ذلك فتأكَّد تمامًا أنه بعد يومين فقط سيخلو المنصب. ثم غمز بعينه للعمدة الذي ضجَّ ضاحكا وقال له:
- أنت مصيبة.. ربنا يكفينا شرك..

فرد عليه التهامي متملقًا:

- يا عمدة. إن لحم أكتافي من خيرك.."
- فقال له العمدة وهو يرْبِت على كتفه:
- فالتهدأ، باقي على خروج شيخ الخفر على المعاش شهور قليلة.. لا تؤذ الرجل ودعه يُوَدِع منصبه بسلام. وتأكد أنك الذي سيشغل المنصب هذا اذا رضيت عنك.

اجتهد التهامي في كل ما وُكِّل إليه من مصائب، خفية، ودسائس، وسرقات مقننة لصالح ولي نعمته كما يقول دائمًا، واستمال ناحيته أيضًا هذا المستهتر الفاشل في دراسته مختار الغنيمي الابن المُدلل لعمدة القرية سلامة الغنيمي ..، حتى بات هو العقل المدبرلهما والمنفذ في كل القضايا التى تطيح بمعارضي العمدة من أهل القرية والقرى المجاورة وأولهم مصطفى الزيان، وأصبح اليد الطولى فاستحق المنصب عن جدارة وبات يُرْسِي قواعده في القرية. وأصبحت الأراضي تُضَم على أرضه تحت سمع وبصر العمدة الذى كان يَغُضُّ الطرْف عنه،.. ولكن دائمًا هو الحال.. عندما ترمي للذئب قطعة لحم فهو يطمع في يدك. وهكذا كان طموح التهامى أكبر من فكر العمدة. فهو يريد أن يتحول منصب العمدة من عائلة الغنيمى إلى عائلة التهامى ويكون هو كبير العائلة وأبنائه من بعده، ولكنْ كيف يكون هذا؟.. إنه لتخطيط شيطاني لا يقدر عليه إلا شخص في مواصفات ابراهيم التهامي، كيف يكون له عائلة وهو المقطوع من شجرة. ومن أحطَّ الناس نسبًا فكأنه يريد أن يُسابق الزمن فبدأ في انشاء دارًا تشبه القلعة في شكلها وكثرة غرفها. وأخذ العزم في الزواج من ثلاث نساء.. ليكمل أسرته الكبيرة التى يحلم في تكوينها. فالخير كثير والمنصب الآن له شأن وقيمة في نفوس أهل القرية،.. فتزوج الزوجة الثانية. ثم الثالثة بعدها بشهور. ولم يمض العام

حتى أكمل العدد.. وأسكن كل واحدة منهن غرفة. يأتمرْن بأمره ويعملن على إرضائه. وكنَّ يخْفَن من جبروته وسطوته التى أصبح عليها،.. ومن كلماته التى يتباهى بها أمام أهل القرية أنه يهدد زوجاته الأربع إذا حدثت أي مشكلة من واحدة منهن حتى ولو كانت بسيطة، فهى ستكون طالق وسيتزوج بديلتها في اليوم التالي..

كان إبراهيم التهامى من المكر والدهاء في أن ينتقي زوجاته من الفقيرات المعدمات. حيث تشعركل واحدة منهن أنها قد ارتفع شأنها بارتباطها بهذا الرجل، فترضى كل زوجة بما قُدَر لها حتى ولو تزوج مائة..، فالهاجس عنده عظيم أن يُنشئ عائلة كبيرة العدد والذرية. وأن يشعر بأن له أولاد كثر وأحفاد وعزوة ل، عل أهل القرية ينسون مع الزمان من هو ابراهيم التهامي ويتذكرون فقط العمدة ابراهيم التهامي.

كان التخطيط على المدى البعيد بحيث يكون بعيدًا عن موقع الأحداث ولا يُشار إليه بإصبع الإتهام في الأحداث التى سوف تجرى لاحقًا...

في الفترة مابين السبعينات والثمانينات من هذا القرن، كانت الطرق الصوفية في أشد أوْجها وشهرتها وقوتها التى سيطرت على مشاعر الكثيرين من البسطاء بل الكثير أيضًا من المثقفين، والأدباء، وأصحاب المناصب العليا. وأصبح من الشائع وليس غريبًا أن نجد الدكتور، والمحامي، والمستشار، ورجل الدين يتصدرون المشهد الصوفيّ و، أصبح هناك مَشْيَخة للطرق الصوفية تضم كل الطرق الصوفية في مصر على اختلاف مذاهبها وطرق ممارساتها، وعُيّن عليها شيخًا لمشايخ الطرق الصوفية؛.. فانتعشت حركة موالد الأولياء واكتظت ساحات مساجد آل البيت المنتشرة في القاهرة كالحسين، والسيدة عائشة، والسيدة نفيسة بالمريدين الذين جاءوا يطلبون البركات، ويتمسحون بالأعتاب والأضْرحة يُوفون بالنذور التى قطعوها على أنفسهم. وأصبحت كل طريقة تنافس الأخرى في أحقيتها في الانتشار والظهور..، فظهرت الطريقة الشاذلية، والطريقة الرفاعية، والطريقة المولوية، وغيرها من العديد من هذه الطرق. وكانت الأغلبية من رواد هذه الموالد المنتشرة في أنحاء الجمهورية هم سكان القرى والنجوع. فكانوا يشدُّون الرّحال إلى تلك الموالد يحملون النذور من الخراف والحبوب، والمحاصيل، وكان أشهر هذه الموالد هو مولد السيد البدوي المقام في مدينة طنطا.

وفي إحدى القرى المنتشرة في المحافظات المحيطة بطنطا ومع اقتراب موعد المولد، اتجهت مجموعات من الرجال كعادتهم السنوية مع نسائهم وأطفالهم يستقلون عربات الكارو، التي تجرها الأحصنة والحمير وقد تكون القافلة الواحدة مكونة من خمس عربات أو اكثر. يحملون أمتعتهم ومؤنهم ويتجهون من قريتهم إلى مدينة طنطا، قد يأخذون الساعات حتى

يصلوا إلى المكان المنشود ولكن ليس مهمًا، فهم في نشوة وشوْق للوصول حيث مُبتغاهم، فينصبون خيامهم حول المسجد، ويستقرون فيها وقد يمكثون أيامًا قد تصل إلى العشر ليال.

لا يذكر الطفل الذي انحشر بينهم، وركب معهم أي ذكرى عن اسم والديه، أو قريته. قد تكون من قرى البحيرة، أو قرى كفر الشيخ، أو الاسكندرية، أو غيرها، كان يلبس جلبابًا مُخططاً بخطوط زرقاء طولية، وطاقية صغيرة على رأسه، حافي القدمين، ومع العدد الكبير الذي كان في الركْب لم يَفْطِن أحد أنَّ هذا الطفل ليس من أبناء أحدهم؛ حتى وصلوا إلى المكان وبدأوا في إنزال أغراضهم وأولادهم. فنزل الطفل وأخذ يتجوَّل في المكان كأنه يبحث عن شيء ما حتى تاه عن خيام أهل قريته،.. كان يبحث عن أمه أو أبيه في وجوه المريدين حول المسجد،.. ومع الزحام الكثيف دخل مع الداخلين إلى إحدى الخيمات وانْزَ، وى بركن منها وبرغم الضجيج الذي عمَّ المكان فقد غَلبه النُّعاس فنام حتى وجده صاحب الخيمة في آخر الليل، فأيقظه وأخذ يسأله عن أي شيء يدل عليه أو على أهله ولكن لم يفهم منه شيئًا غير اسمه. فاصطحبه وأخذ يمر به بين الخيام، ويدخل خيمة ويخرج من أخرى، دون أن يُ، علن أحد عن معرفته. والطفل يبكي فقط عندما شعر بأنَّه غريب بين هؤلاء القوم..، ومالبث تدريجيًا في وسط هذا الزخم من البشر أن نسي مصيبته وأخذ يلهو في الخيمة مع الأطفال ويأكل ويشرب حتى أصبح كأنه وُلِد بها.

لم يجد الرجل بدًا إلا أْن يضمه إلى أسرته التي تعيش معه في الخيمة،.. فنشأ في كَنَف هذا الرجل وحمل اسمه وشب على هذه الحياة مع أسرته الجديدة.، وأخذ يتنقل معهم من مولد لآخر. لم يرتد مدرسة قط بل تعلم

القراءة والكتابة على يد بعضٍ من إخوته، واجتهد الشاب حتى أصبح ذراع الرجل اليمنى وبرع في خدمة المريدين والتأثير، عليهم فكلما زاد عددهم زادت الهِبات والمُؤَن التى يقْتَاتون عليها حتى خروجهم إلى مولد آخر في بلدة أخرى. فتربى بين قدور اللحم المسلوق، والثريد، ورائحة البخور، وتمايل البشر على صوت الموسيقى، وقصائد المداحين، فكان هذا عالمه الذي عرفه ولم يعرف غيره.، حتى كان له السَّبْق في ميراث والده في هذه المهنة وهكذا تربى على حياة لم يتعب فيها غير أنه كيف يخرج القرش من جيب صاحبه برضاه وليس إجبارًا، واصبحت حياته خايطًا من الكذب، والتدليس، والدجل، وشعوذة الأفكار، والمشاعر.، وذاع صيته في طريقته في هذه الأمور؛ حتى استقطبته إحدى الطرق الصوفية الكبيرة المشهورة في الاسكندرية عندما شاهدوا أسلوبه وطريقته في الإقناع وحفظ الأوردة الخاصة بالطرق الصوفية. فتتلمذ على يد أحد المشايخ بها، ودخل إلى عالمهم الحقيقى واطلع على اسرارهم الخفية. حتى أبهر الجميع ونال إعجابهم فتمَّ إرساله إلى السودان؛ ليكون خادمًا لأحد الأقطاب الصوفية الأربعة في جنوب السودان، وكانت هذه الطرق على أشدها في هذا الوقت. فكأنها ترقية عظيمة قد نالها، أو مكافأة كبرى على إخلاصه، وتفانيه في إعلاء صوت الطريقة التي ينتمي إليها. فكرَّس نفسه في خدمة هذا القطب لسنوات عديدة.. علَّمه فيها كل الأسرار العظيمة حتى وصل إلى منزلة تسخير الجن؛ ليكون في خدمته لإرساء القواعد في عقول البشر،.. وانفتح له الطريق يصول ويجُول يجمع حوله المريدين من كل صَوْب. وانهمرت عليه العطايا والهِبات وهو يأتى لهم من الغرائب العجاب ما تُحيِّر العقول وتأخذ بالألباب..، حتى أصبح قطبًا من الأقطاب الأربعة وعاش أياما يعدها من أيام مجده وازدهاره،.. ولكنْ تأتي الرياح بما لا

تشتهي السفن، ففي يوم من الأيام استيقظ فجأة على هرَج ومرَج في كل مكان وأصوات الرصاص والمدافع الثقيله تصمُّ أذنيه. فقد بدأت الحرب الأهلية وإعلان انفصال الشمال عن الجنوب، وأصبح القتل والاغتيالات في الشوارع تزداد بلاهَوَادة ولا رحمة. وبات جنوب السودان من المناطق المشتعلة التى يصعب العيْش فيها، فهرب بمساعدة خدمه في الليل إلى النوبة عن طريق بعض الدروب الخفية في الصحراء ومنها رجع إلى طنطا مرة أخرى، واستقر هناك ثم بدأ نشاطه من جديد. وكوَّن لنفسه بِطَانته المساعدة له كأي شيخ في الطريقة، وهذه البطانة هي من ستقوم بالدعاية له والرفع من شأنه ومنزلته عندالعامة.. وأيضًا هم من سيتصيدون الأخبار من زبائنه ونوع حاجاتهم ويقصونها له، فيفاجئهم عودة بما عنده من أخبار أولية عنهم؛ فيقعون تحت تأثيره وينفذون كل مطالبه عن طيب خاطر. وكان من بين هؤلاء الصِّبية.. (عربي حشاد)..

لكلِ دجال تجد له بِطَانة من الشباب وأبرزهم هذا الشاب عربي حشاد. سريع البديهة،.. معسول اللسان. يُوقِع فرائسه بكلمات قليلة. ويقدمها لعودة على طبق من فضة، يتميز أيضا بضخامة جسمة. ووجه المليئ بالحفر الغائرة جرَّاء مرض الجُديري الذي قد أصابه في الصغر، يحمل تحت أنفه شارباً ضخمًا. بينما شعر رأسه يصل إلى كتفيه، يقف أمام سيده بكل خُنوع وإذلال أو يُمَثَّل عليه بذلك. ينفذ كل ما يطلبه عن طِيب خاطر بدون استفسار أو سؤال. هي الطاعة الكاملة التى جَنَى من ورائها الكثير من سيده..، فهو ليس له عمل غير مايجود به (عودة) وما يقتنصه هو من هِبَاتٍ من وراء ظهره..

وكان عودة يرى فيه شبابه ونشاطه، فكان يَغضُّ الطرْف عن مساوئه وطمعه وسرقاته الصغيرة، بل كان يقدمه على أقرانه من الفتيان..، وأصبح يصطحبه في مشاويره الخاصة في منازل علية القوم في بعض السهرات، ويغْدِق عليه من الأموال حتى حوله إلى مايشبه الكلب الوفيّ لصاحبه. - أو هكذا توَّهم عودة - فأرسله إلى القرية قبله بأيام: حتى يكون في استقباله ويعد ما اتفقا عليه. وكان من السهولة بمكان أن يجد دارًا على أطراف القرية تتكون من ثلاث غرف صغيرة وصالة واسعة،.. وبها فناء مُحاط بسور منخفض وباب من الخشب،.. كانت الدار مطابقة لمواصفات عودة، بحيث تكون منعزلة عن بيوت القرية. وتكون على أطرافها.،... وما إن مرت أيام قليلة حتى اكتمل فرْش البيت البسيط، وأصبح جاهزًا لاستقبال شيخه،... هذا الرجل ذو اللحية البيضاء التى تغطى وجهه الأسمر، وتتدلى حتى منتصف بطنه المرتفع للأمام، ضخم الجسم عريض المنكبين، يغطى رأسه بعمامة كبيرة بيضاء يضع عليها شالًا طويلاً أخضر اللون. العينان دائما مكحلتان بكحل أسود ظاهر.،.. تتدلى من رقبته الغليظة مجموعة من السبح متنوعة الأشكال والأنواع، يُهَمْهِم بتعويذات غير مفهومة ولا مسموعة،.. يجلس على كرسي ضخم من الخشب المُغطي بالقطيفة الخضراء، كُتِبَت عليها طلاسم متفرقة لا تُقرأ. وأمامه طاوِلة صغيرة عليها قَصْعة مملوءة بالجمر يرش عليها البخور، كلما خَبىَ دخانه لا يسعك إلا الخوف والرعب حين تنظر إلى عينيه المكحلتين بالأسود.

تناقلت الأخبار سريعا عن "عودة المصري" ومعجزاته. والتي كان يُرَوِّجها صبيه "عربي حشاد" الذي كان خير دعاية له، فقد اندمج في مجتمع القرية في غضون أيام قليلة، وأرسى قواعد شيخه في نفوس

المتعبين والمحتاجين من أهل القرية، بالكلام عن كرامات سيده وقدرته على فعل الكثير مما لا يتخيله عقل أو يصدقه بنان. فهو يستطيع أن يُزَوّج العانس. ويُشفي المريض، ويجعل العقيم ولودًا،.. وأشياء أخرى قد تفنن في سردها.

كان حشاد يقف في السوق كي يقوم بالدعاية لمَقْدِم شيخه، فكان يُشيع بين الناس ويُعلن عن حضور الشيخ الجليل صاحب الكرامات، وأنه وليّ من أولياء الله الصالحين قد أتى إليهم بالبركة من مصر، واختار قريتهم خصيصًا؛ ليقضي باقي عمره فيها..، وكان ينادي في السوق بصوت مسموع هنيئًا لكم بالخير الذي في طريقه إليكم..، ستاتيكم البُشرى بعد أيام قلائل، إنه الشيخ الجليل صاحب المروءة والمعجزات..، الذي سوف يشفي مرضاكم،.. ويدخل البركة إلى بيوتكم. ويبعد عنكم شرور السِّحر، إنه شيخي الجليل (عودة المصري) وصار حشاد ينتقل إلى القرى المجاورة، ويعلن عن الحدث الكبير.،.. حتى كانت كل القرى على علم بمَقْدِم عودة،.. إلى أن حانت اللحظة المُرْتقبة وأصبح عودة في داره. لم يشاهده أحد عند وصوله. وكأنه خرج من جدران المنزل توافدت على داره الوفود..، وبرع حشاد في احتواء هذه الأعداد الكبيرة،.. فكان يجلس بين الحضور المُتَلَهِف والشَغُوف لحل مشكلته،.. فهذا يريد أن يسافر،.. وأخرى تريد أن تحبل..، وهذا يريد أن يُشفى من مرض عُضال. وكل واحد وواحدة من الفلاحين قد أتوا في مسألة.

ووصل الخبر إلى عمدة القرية. " سلامة الغنيمى " الذي قد بلغ به الغيظ والحَنْق على هذا الدخيل الذي استأثر باهتمام الناس، وأصبح في غضون أيام قليلة حديث القرية بل القرى المجاورة، وإلى الآن لم يَمْثُل أمام حاكم القرية وسيدها ويقدم له فروض الولاء والطاعة، فأرسل في إثره ثلاث

من خفر القرية ممَن يتميزون بضخامة الجسم، وشراسة الطبع؛.يتقَّصُّون عنه وعن معيشته ويأتون له بالخبر اليقين،. ويبلغونه بالمثول بين يدى سيد القرية وحاكمها، فإذا رفض فليُحْمَل أو يُجَر إلى دوار العمدة، وهناك من التُّهم الجاهزة التي قد يُفَصِّلونها علي مقاسه،.. ويُودِعُونَه غَيَاهِب السجون، فذهبوا إليه في جُنح الظلام يتسترون بحقول القصب طويلة السوق؛ ليكتشفوا سره ويُحْضرونه قَسْرًا، واقتربوا نحو الدار في هدوء بينما رائحة البخور قد أزْكَمت أنوفهم، وسمعوا هَمْهَمَات ينقلها الأثير مع الدخان المنبعث من النافذة المفتوحة، فاقتربوا أكثر يتبينون بحذر أحوال هذا الغريب، ولكنْ كانت المفاجأة التى قد شَلَّت أقدامهم وثبتتها إلى الأرض تثبيتا وأصابهم الهلع الشديد؛ عندما سمعوا صوتًا يناديهم بأسمائهم الواحد تلو الآخر، فأرادوا النُكُوص على أعقابهم دون جدوى، ولم تتحرر أرجلهم إلا بعد أن ناداهم الصوت؛ كي يدخلوا إلى داره ويَسْتَأْنسوا ويُصِيبوا شيئًا من خيراته، فذهبوا إليه منقادين كالمنومين مغناطيسيًّا وجلسوا تحت قدميه، وعيونهم مفتوحة، وأفواههم مَشْدُوهة، فنظر إليهم وابتسامة تكشف عن أسنانه الذهبية التى تلمع في الضوء الخافت الصادر من المصباح المُدَّلَى من سقف الغرفة، بينما الجدران قد غُطَّت بالورق الملون باللون الأزرق وقد رُسِمَت عليه حروف، وكلمات وصورًا، وأشكالًا غريبة، وجماجم، وحبال، و دخان البخور المتزايد قد جعل الرؤية شبه ضبابية؛ فزاد في نفوسهم الرهبة، وأصبحوا جاهزين نفسيًا؛ ليصدقوا كل ما يُلْقَى عليهم... وأخذ صوته يملأ المكان مخاطبًا إيَّاهم مُرَحِبا بهم بوجه باش وبنفس الابتسامة العريضة المرعبة.. ويقول لهم:

- أهلا بزوَّاري، أهلا بأحبابي، داري دائمًا مفتوحة لكم وقلبي قبلها، هنا استراحة الكليل، وجنة المشتاق، هنا دواء الصدور وراحة القلوب.

لم ينطق الخفر بأي حرف وكأنهم ابتلعوا ألسنتهم، أو هربت من حُلُوقهم خوفًا وهلعًا. لم يُمهلهم صوت الرجل وأمر بالعشاء، فجمع أحدهم بعضًا من شجاعته وقال بصوت مرتعش:

- كيف عرفتَ أسماءنا، ونحن لم نرك ولم ترنا من قبل؟!

قال وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا وقد أغمض عينيه:

- هذه مِنَّة الإله ومن خاض فيها لم يصل. أنتم الآن ضيوفي وقد جئتم على موعد العشاء.
- لم نأت إليك كي نتناول العشاء، إن حضرة العمدة المُوَّقَر "سلامة بيه الغنيمى" يريدك في التو واللحظة.

فابتسم لهم بأسنانه الذهبية اللامعة،.. وقال وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا وهو مغمض العينين:

- أحباب يزورون حبيب، واللقاء نصيب حَيّ..

فارتعد المتكلم من صوته الذي علا فجأة في قوله "حَيّ " وانتفاضة جسده فوق كرسيه الضخم، وأردف الشيخ بقوله:

- لا تردوا دعوة الحبيب، فطعامه بركة. وماؤه شفاء، ونسله مبارك.. حَيّ.

وأشار بيده وقال: العشاء ياقوم. فمالبثت أن ظهرت الصحون من حيث لا يدرون تتحرك في الهواء من تلقاء نفسها، وترتفع وتنخفض، وتُرَصُّ على البُسط الممدود تحتهم دون أن يمسكها أحد. لم يكادوا أن يُشاهدوا ذلك حتى بُهِت لون بشرتهم السمراء، وأصبحوا كالموتى من هوْل مارأوا..، وكادوا يقعون أرضًا من الإغماء.. فهدَّأ الرجل من رَوْعِهم وقال لهم: لا تخافوا. هنا بيت الأمان، هذه ملائكة تقوم على خدمتكم لا ترؤنها ولكنني أراها فهي خادمة لي.. فلا تفزعوا، أقدموا على طعامكم. وخذوا ما يكفيكم.. ويشبع بطونكم. وأقرءوا العمدة السلام..

أقْدَم الخفراء مترددين فقال له أحدهم متشجعًا يبعد عن نفسه إحساس الخوف والرهبة:

- ألن تشاركنا الطعام؟ فنحن ضيوفك كما تقول.
- كيف أضع شيئا في معدتى بعد ان أطعمنى الحبيب بيديه؟
- أي حبيب تقصد؟
- وهل هناك حبيب غيره؟.. صاحب الشامة كحيل العين على كتفه علامة.

وانتفض جسده مع اهتزاز رأسه بلحيته المُدلَّاه على صدره وتأرجح السبحات واصطدامها ببعضها وقال بصوت عال:

- حَيّ...
- فصاح أحدهم وقد أخذته الحماسة، وظن أنه أدركته الفِطْنة وطفح الذكاء على وجهه:
- ياصلاة النبي، أكنت مع الرسول.؟! مدد يارسول الله مدد... مدد يا أبو الكرامات مدد.

فقام النفر إلى الرجل يتمسحون بكرسيه ويُقَبِّلون يديه وهو يقول: مدد مدد ويَرْمُقهم بطرف عينيه كذئب يداعب فرائسه، وبعد أن هدأوا قال لهم:

- انطلقوا فأبلغوا القاصي والداني، فأنتم اليوم سفرائي إلى الناس، فليأتِ إليّ كل محتاج في مسألة وكل تعيس في مشكلة.

ثم أخذ يمسح على رؤوسهم حتى صاروا كالكلاب الأليفة التى تهز ذيلها سمعًا وطاعة وطرباً..

لم تمض الليلة حتى انتشرت سيرته في القرية كانتشار النار في الهشيم، وكان أول مَنْ شغله هذا الوافد الجديد على قريته هو سلامة الغنيمى فكان يسمع حديث الخفر وقد جحظت عيناه وتملَّكه شيء من الخوف والرهبة، فهو يَهْلع من سيرة الجن والعفاريت أيضًا وكأنه طفل صغير. ثم تمالك نفسه أمام شيخ الخفر " إبراهيم التهامي." وقال له:

- هل يعجبك ذلك يا شيخ الخفر؟ واحد لا نعرف له أصلًا ولا منشأ ويرفض المُثول أمام عمدة القرية؟

انتفض شيخ الخفر واقفًا وقد ظهر الانزعاج على وجهه وأمسك بندقيته وقال له بعصبية ظاهرة:

- أنا الذي سوف أذهب إليه وأجرَّه من رقبته ولو رفض فليس عندي غير رصاصة في مخه، وندفنه مثل كلب أجْرب..

انطلق شيخ الخفر متجهًا إلى هذا المُدْعَي عودة الذي يرفض المُثول أمام عمدة القرية، حتى وصل إلى باب الدار فدفعه بقدمه ودخل مسرعًا

وأغلق الباب خلفه وأنزل بندقيته من فوق كتفه ووضعها على يده كأنه يتأهب لإطلاق رصاصاته، ولكنه علَّقها على مِسْمار خلف الباب عندما استقبله حشاد بابتسامة كبيرة وقال له إنَّ الشيخ في انتظارك، وإذا بعودة يقف خلفه مبتسماً.. ويقول له:

- ماهي الأخبار؟ هل صدقوا اللعبة؟

ابتسم شيخ الخفرحتى ظهرت أسنانه الصفراء وقال له:

- يخرب بيتك يا شيخ لقد أوْقَعْتَ الرعب في قلب، العمدة وارْتعدَت فرائسه، أما الخفر فقد أصابتهم الرعشة والحمى من الرعب. ماذا فعلت لهم؟
- كان لا بد من الصدمة الأولى أنْ تكون محبوكة جيدًا أو سينكشف كل شيء..

كان اتصالك بحشاد والابلاغ عن أسمائهم له بالغ الأثر في التأثير عليهم، وتجهيزهم للمرحلة الثانية.. فأحضرتُ لهم الجن خصيصًا.

- ربنا يكفينا شرك.

ثم ضحكا سويًّا وجلسا يُخططان للمرحلة التالية، بينما حشاد وقف خارج الدار يستطلع المكان ككلب حراسة أمين على سيده..

وكان لقاء إبراهيم التهامي بعودة صدفة في مولد أحد مشايخ الطرق الصوفية بالاسكندرية، وقد أعجبه طريقة ملابسه، وسهولة إقناع المريدين به وبكراماته التى هى من فعل السحر والجن، فاتفق معه أن يأتي للعيش في القرية وسيوفر له كل ما يلزم للمعيشة، على أن يؤدي

دوره الذي سيَجْني من ورائه الشيء الكثير، وانتظره في الموعد المحدد في الليلة الموعودة بعيدًا عن عيون أهل القرية في " الخُصّ " ذي الباب الصفيح في وسط أرضه الزراعية. ولم تمض شهور حتى أصبحت القرية معظمها أسيرة هذا الرجل الغريب.. عودة المصري.

عندما تراه تَحْسَبه مُشَوَّش الفكر تائه في الملكوت نظراته الزائغه لا تُنْبِئ بشيء، بينما فِكْره مُتَقِد يعتنق صمتًا في حضور المتكلمين وينطلق لسانه في وحدته مع شخصياته المجسمة، فكل تمثال ينتهي منه هو جزء منه يربط بينهما لغة خاصة لايفهمها إلا هو، يتذكر أول مرة وقف أمام موديل حقيقية في الأتيليه، كانت فتاة شابة مملوءة بالحيوية صارخة الجمال والأنوثة لا يُغطى جسدها إلا اليسير من القماش، جسدها الأبيض تلوَّن بلون حمرة من الإضاءة وحرارة المدفأة المسلطة عليه، ارتعشت أنامله في بادئ الأمر وتَصبَّب عرقًا' وشعر أنَّ جدران الغرفة تدور سريعًا به، حانت منه التفاتة لمَن حوله، وتعجب من الهدوء واللامبالاة التى تُصيب جميع زملائه في الأتيليه وكأن هذا الجمال لا يعنيهم ولا يحرك فيهم ساكنًا، وتصاعدت على شفتيه ابتسامة ساخرة عنما تذكَّر أيام دراسته في كلية الفنون في القاهرة، كانت الموديل التي تجلس أمامهم هي إحدى العاملات العجائز التى عاصرت أجيالا في الكلية منذ إنشائها، بملابسها الريفية الكاملة وتجاعيد الزمن التي وُشِمَت على وجهها، لم يكن هناك مجال للتعري باسم الفن، ولا هذه الحرية المطلقة كما هنا في إيطاليا.

انتبه على صوت المشرف على الأتيليه وهو يمر بين الفنانين يناقشهم ويعطى لهم النصائح في مجسماتهم التي يعكفون عليها، حتى وجده أمامه توقف طويلاً أمام التمثال الذي بيده وأخذ يحرك القرص الدوار حتى يرى كل زوايا المجسم..، وظهرت على وجهه علامات الرضا..، فأشاد به أمام زملائه الذين قد تجمعوا حوله يُثْنُون على عمله، كانت لَكْنَته الركيكة وملامحة الشرقية تُضْحِك زملائه وزميلاته الإيطاليات في الأتيليه، فكانوا يُحبون أن يداعبوه؛ ليتكلم لهم بالعربية وهم يرددون

ورائه الكلمات بطريقة ضاحكة، وتهافتت عليه فتيات الأتيليه؛ لجاذبيته وبشرته الشرقية المحببة. كانت من بين زميلاته فتاة قد استحْوَذت على قلبه وعينيه من أول وَهْلة..، ماهذا الذي يراه؟. أهو في حلم مراهقة جميل كان محرومًا منه سنوات طوال؟.. أم هي حقيقة وواقع ملموس؟.. لم يرَ قبل ذلك جسدًا بهذا الجمال والتناسق وكأنها أفروديت تخرج من الماء تفرد شعرها على الكون..، أو فينوس تتباهى بجمالها الآخاذ، شعرها الأصفر مَعقُوف خلف رأسها ليوضح وجهاً أبيض مُشَرَّب بحُ، مرة.. ويُزَيِّن هذا الوجه عينين زرقاوين بزرقة السماء الصافية. ناهيك عن الأنف الدقيق الذي رُسِم أسفله أجمل شفتين حمراوين. كانت هي " (صوفيا) التي استقبلته في أول يوم في الأتيليه بعدما تلقت اتصالًا هاتفيًا من صديقها (بن رحمة) مسؤول المبعوثين. يوصيها أنْ توفر له سُبل المعيشة والاستقرار..، فقامت بتقديمه لزملائه وعرفته على المكان وأسلوب الدراسة ومواعيدها. ونظرًا للإيجارات الباهظة في هذه المدينة، عرضت عليه السكن معها في نفس الشقة الصغيرة التى تؤجرها على أن يدفع إيجار غرفته. كان العرض بالنسبة له غريبًا وغير تقليدي. أيعقل أن يَبِيت في شقة بها امرأة غريبة.؟! ولكنْ أي إمرأة.. إنها حورية من الجنة قد هبطت؛ لتنير الأرض بجمالها.. كيف يتَأتَّي له النوم وهو يسمع صوتها ويتسرب عطرها ودفئها في أرجاء المكان، حتى يقتحم أنفه و يحتل حواسه وخَلَجات نفسه؟ نظر إلى زملائه في الأتيليه؛ كى يستشف من وجوههم أثر الحدث الذي يوشك أن يقع. لم ير أى ردة فعل أو حتى امتعاض أو تساؤل أو استنكار من أحد.. وكأنه شيء عادي أنْ يسكن مع امرأة لا تربط بينهما صلة. هكذا هى الحياة في أوربا أيُّها الشرقي إما أن تقبل بها، وإما أن تغادرها

بغير رجعة، فلم يجد أمامه إلا أن يوافق بدون اعتراض، ومَن يبحث في أعماقه يجد أنه كان يتمنى ذلك بكل جوارحه.

كانت حصيلته من اللغة الإيطالية مجرد كلمات قليلة كلمات عامة مثل : (كيف حالك. شكرا. أريد أن أصل لهذا العنوان، وبعض المصطلحات الفنية.)... وغيرها من الكلمات التى تُعينه على بدء حياته.

بعد انتهاء العمل قادته صوفيا حيث مكان السكن. وقد كان قريبًا للأتيليه، فسار بجوارها يجر حقيبته حتى وصلا إلى البيت، كانت الغرفة الفارغة التى سكن فيها صغيرة ولكنها نظيفة ومرتبة بها سرير صغير خشبي، ومِنْضدة عليها بعض الكتب الفنية، وأباجورة صغيرة من المعدن، وكرسي.. وفي طرف الغرفة خزانة للملابس مخفية في جدار الغرفة أما الجدران فقد كُسِيت بورق الحائط المزخرف بوردات ذات لون ذهبي هادئ. ونافذة مُغطاة بستائر بيضاء نظيفة..، وتطل الغرفة على حديقة صغيرة. اللون الأخضر بدرجاته هو اللون السائد في هذه المدينة.

أوضحت له (صوفيا) بالانجليزية الضعيفة التي تتحدث بها؛ كى يفهمها و بالشرح المُبسط حدود غرفته، وأوقات الطعام. وأوقات تواجده في الصالة، والفرجة على التلفاز. حتى أوقات دخول الحمام، كانت تتكلم بجدية وصرامة حتى أنها لم تبتسم قط, وأكَّدت عليه أنْ يبقى في حاله ولا يتدخل فيما لا يعنيه. وأنَّ السكن معها لا يفرق كثيرًا عن سكنه في بانسيون أو أوتيل، أوْحت إليه أن الالتزام التام في تنفيذ هذه البنود شرطاً أساسيًا في السكن في شقتها. ثم تركته وأغلقت على نفسها باب غرفتها بالمفتاح.

شعر سمير ببعض الامتعاض من جِدْيَّة صوفيا وحرصها على عدم الاختلاط به، وتغيرت فكرته تمامًا عما كان يمُوج في صدره منذ قليل حين شاهدها، وشعر لوَهْلة أنه دخل إلى معسكر للشباب ولكن مديرته هذه الفاتنة الجميلة الجادة، أغلق باب غرفته. ورمى جسده المُنْهك على السرير لعله ينام بعد هذا الإرهاق في السفر والاستيقاظ منذ يومين،.. ولكن جافاه النوم وودع مُقْلَتيه. وأخذت الصور تتراءى له في سقف الغرفة، نصائح أبيه ودعوات أمه. ومشاكسات أخته الجميلة فاطمة. التى حزنت كثيرًا لفراقه وسفره وأرادت أن تؤجل موعد زواجها حتى يرجع بعد خمس سنوات حين عودته من البعثة. ولكنْ سمير قال لها مازحًا:

- سوف تنضمين إلى طوابير العوانس. وسيهرب خطيبك محمود إلى فتاة أخرى. فردت عليه بعد أن أغاظها بكلماته:

- محمود محترم ويحبنى وسينتظرنى العمر كله.

فتدخلت أمها كي تَفضّ هذا النزاع الباسم قائلة:

- يا أولاد كفى مناوشات ألم تشبعوا؟! منذ صغركم وأنتم هكذا.

ولكن سمير قال مازحا:

- البركة في الحاج مصطفى. لقد رفضتُ هذه البعثة؛ كي أكون بجواره ولكنَّه أصرَّ عليها.

خرجت من صدره زفرة حنين وشَجَن. وبات يتقلَّب في فراشه حتى بزَغ أول ضوْء للنهار..، في هذه اللحظة فقط شعر بألم شديد في جفنيه، وأصبحت ثقيلة؛ فأغمض عينيه وراح في سُبات عميق..

في كل قرية تجد فيها بهلولًا، والبهلول ليس اسم أكثر منه صفة. والصفة تُطلق عادةً على الشخصية ذات المواصفات الخاصة: كاختلال في العقل، أو بعض الإعاقات الخاصة. ويكون دائمًا من حرافيش القوم، وبهلولنا هذا هو شخصية جميلة. نشأ يتيمًا..، كل الذي يَعْلمه أنه تربى في بيوت القرية. هذه تُطْعِمه، وأخرى تُعْطِيه جلبابًا قد استكفى ابنها من ارتدائه. لا يهمه أين ينام.؟ في أي مكان يأتي له النوم فينام ملء جفونه يلْتَحف السماء ويتخذ الأرض سريرًا، قد يكون هذا المكان إحدى الزرائب..، أو بجانب جدار إحدى دور القرية. أو في المسجد..، أو تحت أي شجرة. يَتَلَعْثَم بشدة في إخراج الحروف مما كان يزيده من عصبية تُضْحِك الذين التفوا حوله، لم يكن أحد من أهل القرية يراه إلا ويداعبه ويشاكسه بكلمات تُغيظه؛ حتى يجعله يُخْرِج ما عنده من كلمات متقطعة. قد تكون سبابًا أو حتى مديحًا لا يهم. فالكل لا يغضب منه بل يحبونه لصفات كثيرة يتحلى بها: كالمروءة الواضحة في شخصيته البسيطة، فهو لا يتحمل أن يرى إحدى النساء تحمل على رأسها حملاً ثقيلًا وتمشي به في شوارع القرية؛ فيسرع إليها ويحمل عنها هذا الحمل، أو يرى طفلًا صغيرًا يبكى؛ فيسرع إليه يداعبه ويعطيه ما يحفظه من الطعام أو الحلوى المخبأة في فتحة جلبابه. وكأنه يرى أنَّ كل امرأة في القرية هي أمه التي لم يعِ على رؤيتها وكل طفل هو أخ له أو ابنٌ. لم يعرف معنى للنقود ولم يهتم بها طالما أن الله يرزقه الطعام وبعض الأسمال التى تَقِيه برْد الشتاء وتُغطى عورته..، فتجده يرتدى دائمًا هذا الثوب الأزرق الذي يرفعه من الوسط ويربطه بحبل من الليف. بينما يظهر سرواله الذي يصل إلى تحت ركبته. ويعتمر فوق رأسه دائمًا هذه الطاقية البنية المصنوعة من الصوف والمُتآكلة الحواف. لا يغيرها أبدًا وكأنه يعتز بها، أما تفاصيل ملامحه فتختفي تحت هذا

الشعر الشَّعْث الطويل الذي يَظهر من حواف الطاقية واللحية الكثيفة والشارب. لم يلحظ أحدٌ جسده المتناسق أوعضلات ذراعيه وصدره التى نمت من الشقاء والعمل في الأراضي الزراعية. ولكنْ أنّ لوسامته هذه أن تظهر تحت هذا المظهر العام كبهلول القرية.. وبالرغم من ذلك فإنَّ الإشاعات الكثيرة تدور حوله: فمنهم من يقول أَنَّ بهلولاً هذا ليس كما نظن أو نراه. إنه من الفئة التى تُقال عليهم. عزيز قوم ذل فيذكرون أنه تربى طفلاً صغيرًا مُرَفَهًا بين عائلته التى كانت تملك من الأطيان والأموال ما تغطي عين الشمس ولكنْ الزمن غدَّار، فقد قُتِل والداه في حادثة قطار الصعيد بعدما باع أبوه كل ما يملك في القرية؛ كي ينتقل إلى المدينة. وحمل كل أمواله في حقائب للسفر. فُقدِت جميعها أو احترقت معهم في القطار، ويقول البعض أنها قد سُرِقَت. ولم ينجُ إلا هذا الطفل المسكين. وقد تولته نساء القرية كي يتربى مع أولادهم، ومما يُذْكر في القرية أيضًا أنَّ بهلول قد تولاه الجن بالتربية. فكان الوحيد من أطفال القرية الذي لم يدخل الخوف إلى قلبه منهم، بل كان يسير في شوارع القرية ليلاً بينما أقرانه الذين في مثل عمره فهم يرتجفون تحت الألحفة بمجرد سماع حكايات جدتهم عن الجن أو العفاريت، ومما يُذْكر من شجاعته أنه ذات يوم رأى مشهدًا غريبًا في الطريق المؤدى إلى الحقول، كان هناك حمارٌ نافرٌ يجرى بأقصى سرعته بينما يجر خلفه صبيًا متعلقًا برجله في الحبل المربوط برقبة الحمار، ويَسْحله سحْلاً والناس تجرى خلفه غير لاحقة به، لم يتردد بهلول في أنْ يقفز على رقبة الحمار ويُمسك بها بشدة ويأخذها أرضًا في حركة لم يتوقعها أحد؛ ليوقف سحْل هذا الفتى المسكين فتعثر الحمار به ووقع على ساق بهلول فكسرها، فتجمَّع أهل القرية حوله وهم في اندهاش غريب من شجاعته و جُرأته، فحملوه سريعًا وذهبوا به إلى " مُجبراتي القرية " وهو رجل

أخذ المهنة عن أبيه دون علم أو دراسة، فهو طبيب القرية في الأمور المستعجلة، فضمَّ العظام على بعضها ولفَّ عليها قطع صغيرة من جريد النخيل، ثم ربطها بإحكام والعجيب أنَّ بهلول لم يتأوه من الألم بل ظل متماسكًا قويًا، وتمر الأيام وتترك هذه الحادثة عرجًا خفيفًا في رجله اليُسرى..

عندما رآه الحاج مصطفى الزيان على هذه الحالة وسمع عن مروءته وإخلاصه، عرض عليه أنْ يعمل عنده ويُوفر له السكن والطعام والملبس. فكان شرْط بهلول الوحيد أنْ يُقيم خارج بيوت القرية، فَبَنَى له حُجرة على رأس أرضه الزراعية في مواجهة شجرة الجُميز الكبيرة. ووضع تحت الشجرة طُلمْبة ماء كصدقة جارية وأيضًا كى يستعملها بهلول في احتياجاته اليومية، وزوده بالكثير من الثياب والمُؤَن التى تُعينه على الحياة. وأصبح بهلول منذ ذلك الوقت هو الحارس الأمين لكل ما يَخُصُّ الحاج مصطفى، فتراه في وسط الحقول يطارد الغربان والطيور التى تأكل المحصول، فيقول له الحاج مصطفى ضاحكا: دعَها يا بهلول فهى لن تأخذ غير المُقَدَّر لها، وأيضًا قد تكون صدقة لنا يوم القيامة، واعتاد أنْ يجمع الفراشات الجميلة والزهور ويذهب ليعطيها لفاطمة التى تأخذها منه، وتعطيه بعضًا من الشطائر المصنوعة في المنزل وهى مُمْتنة له على صنيعه، وأصبح بمرور الأيام كابنٍ لهم يقضي لهم حوائجهم، ويكون في حراسة فاطمة حين ذهابها لشراء بعض الحَاجِيّات أو في زيارة صديقتها رجاء الطوخى، وكأنه يُعَوِض غياب ابنهم الوحيد في بلاد الغربة.

ذات ليلة عاد سمير من عمله متأخرًا، فسمع صوت التلفاز، فنظر إلى ساعة يده وقال: ألمْ تتأخر صوفيا عن النوم هذه الليلة؟.. فَدَلَف إلى

الداخل وأغلق الباب ثم اتجه إلى غرفته، فحانت منه التفاتة ناحية الصالة حيث التلفاز فوجد منظرًا غريبًا. كانت صوفيا على الأرض نائمة على وجهها. فتنحنح بصوت عال لعلها تعلم بوجوده. ولكنْ بدون فائدة فاقترب سمير بحذر اتجاهها.. ماهذا؟! لقد كانت صوفيا نائمة، وقد انحسر عن جسدها قميصها الشفاف، وأصبحت شبه عارية، ووجد زجاجة خمر فارغة ملقاة بجانبها على الأرض و وكأس زجاجية فارغة. والكثير من أعقاب السجائر على الطاولة الصغيرة، فنادى عليها مرارًا بصوت عال، ولكن كانت صوفيا في عالم آخر؛ تجمد سمير في مكانه وتصَبَّب عرقًا.. ماذا سيفعل؟ أيتركها هكذا ويدخل غرفته؟ وبدأ الشيطان يحاوره: يالك من محظوظ إنها غائبة عن الوعي، ولن تدري مهما فعلت معها سيكون بالنسبة لها حُلمًا أو كابوسًا لا يفرق كثيرًا معها، اطفئ لهيبيك وشهوتك يارجل، لقد أُتِيحَت لك الفرصة كى تتمتع بهذا الجسد الناري وهذه الشفاه الملتهبة. ولعلها لن تتكرر مرة أخرى وأخذ الشيطان يغزوه بطرق الإقناع، ألم تسأل نفسك لماذا تجلس هنا بهذه الملابس على غير عادتها؟ ولماذا لم تشرب زجاجتها هذه في غرفتها؟. إنها بانتظارك يا رجل كي تثبت لها رجولتك وفحولتك المسجونة تحت غلاف العِفَة والاحترام الخائب، وبدون أن يشعر مال عليها، وحملها على ذراعيه كالفراشة الدافئة، واتجه بها إلى غرفتها وفُوجِئ سمير بيديها تلتفان حول رقبته في تلقائية؛ فزاده ذلك اشتعالًا حتى وصل بها إلى مَخْدَعها، فوضعها برفق على السرير وهى مغمضة العينين دافئة الجسد وتخيل أن شفاهها كأنها تناديه:

أيها الرجل المصنوع من الثلج هَيْتَ لك، لن تجد فرصة أخرى أسهل من ذلك، في هذه اللحظة أصاب سمير ما يشبه الحمى، وارتفعت حرارة

جسده، وتبلورت حبات العرق على جبينه، وأصابته رعشة فمال عليها بهدوء وامتدت يديه إلى الغطاء وسحبه عليها حتى غطى جسدها بالكامل، ثم توجّه إلى زر الكهرباء، وأطفأ مصباح غرفتها، وأغلق الباب خلفه بهدوء، ثم أغلق التلفاز ومصابيح الصالة ومشى إلى غرفته فخلع ملابسه وتوجّه إلى الحمام فأخذ دُشًا باردًا لعله يُخْمد هذه النار التى تأجّجت في جسده فجأة، كان سمير بين حالتين من حالات الصراع النفسي. والتضارب في المشاعر. كيف بات كالصائم عن الطعام في حضور صوفيا الطاغى على عكس ما يَعْتَمِل في أعماقه بسبب هذا الجمال الصارخ؟! ولكن كان ذلك تحديًا رهيبًا، وتحكمًا في النفس بشكل يُحسد عليه لابد و أنْ يضع مشاعره وشهوته في الأصفاد.

أولا: هو لم ينس نفسه قَطّ بأنه مُراقب من الله عز وجل،.. ثانيا: لم ينس بأنه خليفة مصطفى الزيان الرجل الوَرِع صاحب المُثُل العليا. ثالثا: لقد عقد اتفاقًا جديًا معها بالالتزام وعدم التعرض لها، كما أنّ هذه ليستْ من عادات صوفيا، فهو لم يرها تشرب أبدًا في الصالة أو تظهر بهذه الحالة.. تبًا للخمر ومَن يشربها.

استيقظت صوفيا وهى تشعر بصداع كبير، ففتحت عينيها فوجدت نفسها في غرفتها وعلى سريرها وتحت غطاءها، لم تتذكر شيئاً عن البَارِحة غير بكائها، وأنها كانت تجلس في الصالة أمام التلفاز تشرب، كيف وصلت إلى السرير؟ ومَنْ قام بتغطيتها شعرت بحركة خارج الغرفة، فنادت عليه بصوت ضعيف خافت سنيور سامر.. سامر..

كان سمير قد استيقظ مبكرًا فأعدَّ القهوة لنفسه، وأخذ يتناولها مع بعض الفطائر التى جلبها في الليلة الماضية، سمع صوت صوفيا ينادي عليه

من الداخل فصَبَّ كوبًا من القهوة وضعه على صينية وبعضًا، من فطائره ووصل إلى غرفة صوفيا فطرق الباب وقال لها من الخارج:

- أيمكننى الدخول؟

فقالت له:

- لحظة واحدة سأكون جاهزة..

قامت مُتَرنْحةِ تستند إلى الجدار؛ حتى وصلت ناحية المِشْجَب في ركن الغرفة، فتناولت الروب المعلق عليه وارتدته، وعدلت من شعرها بسرعة، ثم عادت ودخلت تحت الغطاء مرة أخرى، وهى تشعر أن رأسها يكاد ينفجر من الألم. ثم نادت على سمير أن يدخل..، فوجئت صوفيا بسمير وهو يحمل صينية عليها القهوة وبعض الفطائر. فقالت بصوت واهن:

- ما هذا... هل هذا معقول..؟!

ابتسم سمير وقال لها:

- كيف حالك الآن سينوريتا.

أدركت صوفيا على الفور أنَّ مَنْ حملها حتى مَخْدَعها إنه هذا الشاب، وهو مَنْ قام بتغطيتها؛ فصعدت الدماء إلى وجنتيها خجلاً، ومدت الغطاء حتى وصل إلى رقبتها، وأيقنت أنه لم يمسسها بالرغم من هذه الفرصة السَانِحة وهي غائبة عن الوعى، ولو فعل ماكانت لتلومه، وأخذت تنظر إليه وكأنها تلوم نفسها أهذا الشاب الذي كانت خائفة منه

في أول لقاء معه؟.. يالـه من شخص كريم وإنسان فاضل. ردت عليه بصوت خفيض.

- أنا آسفة جدًا يا سنيور، أرى أننى التى لم أحترم العقد المبرم بيننا.

فقال سمير:

- لا عليك يا آنسة، قد تكونين في مزاج سيء البارحة فأسْرفتِ في الشراب، ولكنَّ نصيحتى أن تقلعى عنه؛ فهو مُضر لصحتك كثيرًا.

تنهَّدت صوفيا وتعجبت من هذا الشاب الذي يلتمس لها أيضًا الأعذار، بل وينصحها لِمَا فيه الخير، وتساءلت: هل كل رجال الشرق هكذا؟.. شعرت في هذه اللحظة أنها بين أيدٍ أمينة وهذا الرجل كأنَّه فرد من أسرتها.

أفاقت صوفيا على صوت سمير وهو يمد يده بفنجان القهوة وقال لها:

- اشربي هذا سوف يذهب الصداع وتكونين في حالة جيدة.

فشكرته مُمْتنة لصنيعه وكرم أخلاقه.

فقال لها سمير:

- لم أفعل شيئًا هذا واجبي، ثم استأذن منها وانصرف.

استمر سمير ملتزمًا بكل بنود الاتفاق بدرجة قد أثارت إعجاب صوفيا، قللت من مخاوفها تدريجيًا مع مرور الوقت؛ حتى أصبحت تتحرك في

المكان بحُرية وكأنَّه غير موجود، ولكن مع ذلك فقد أثار حفيظتها صمته الدائم، وقلة كلامه حتى في الأوقات القليلة التى تصادف وجوده أمام التلفاز، فتجده يقوم مسرعًا ليخرج إلى الكافيه القريب من السكن أو يدخل إلى قوقعته من جديد، كأنما يتحاشى وجودها في المكان أو الحديث معها، فكانت تتساءل: أليس هذا الشاب عربيًا؟ أنا أعرف أنهم يتصفون بالرومانسية وحبهم للجنس والنساء. ألا يرانى أنثى؟ جُلَّ ما يغيظنى في هذا المصري أنه يتعامل معى بتجاهل، وكأننى غير موجوده، لم يُبْدِ لِى أى إعجاب في حديث، ولم يَضْعُف من وجودى بقربه ورؤيته لي أحيانا بالصدفة بملابس خفيفة أو قصيرة، فكان يَغُضُّ طرْفه بسرعة، ويدخل غرفته ويُغلق على نفسه بالمفتاح كأننى أطارده، تبًا لهذا المتغطرس المغرور، أو هذا الجبان الخائف. ولكن هل لو كان وَقِحًا ومُتَعديا كنتُ أُعْجِبْتُ به هكذا؟.. يالنا من نساء نجري دائمًا إلى مَنْ يترفع عنَّا باحترام وأدب، ونرفض من يتذلل تحت أقدامنا، وبالرغم من حَنَقى عليه فقد أحسست بأمان مع هذا الشاب الغريب لم أشعر به مع هذا الخائن إيميليو، الذي تركنى من أجل هذه العاهرة التي تعمل في حانة لوتشيانو.

كانت هذه الحادثة بداية عهد جديد ورؤية واضحة، فقد تركتْ انطباعًا مذهلًا في أعماق صوفيا، هذا الشرقي الجميل قد مَلَك عليها حواسها بصمته الممتلئ دفئًا وإحساسًا، قد ملأ كل ركن في الشقة بالحب والثقة والأمان، أصبحت هى التى تتمناه الآن، تتمنى دفئه وأحضانه وقبلاته، تتمنى شفتيه وجسده، تتمنى حبه، ولكن هل ستنتظر منه كلمة حب أم ستنتزعها من شفاهه انتزاعا؟.. وبدأت تُحَدِث نفسها: ألم يعجب بي؟ أم أننى لم أرُق له؟ أم أنه مازال يتمسك بشرقيته، وخجله الأبله؟

وبدأت صوفيا تتخذ عدة قرارات بينها وبين نفسها، فأقلعت عن الشراب بل أقلعت أيضًا عن التدخين، وأصبحت الزهور تملأ المكان والموسيقى لا تنقطع أبدًا في شقتها، الحب يصنع المعجزات، وهاهو الحب الآن يتملك كل جوارحها ويجب أن تبوح له بذلك، ولكن ماذا؟ يقولون عندما تحب المرأة الإيطالية مهما كان منصبها ومكانتها فإنَّ تعبير الحب عندها ليس الزهور أو الموسيقى فقط، بل الأهم أن تصنع الطعام لحبيبها بيديها، يقولون أن المرأة تضع في هذا الطعام نَفَحات من حبها العميق وعشقها، فيُصِيب قلب حبيبها بسهم المحبة والغرام، هكذا ومازالت معتقدات النساء حتى الآن أن تصنع الفطائر وتُحاط بالزهور والشموع وتُقَدِم قربانًا في منتصف الليل ويُوضع على صفحة ماء النهر؛ لتأخذها الأمواج الهادئة لآلهة الحب التي تسكن في منتصف النهر؛ فتعود النسمات مُحملة بالمحبة والعشق؛ عرفانا من آلهة الحب فتُصِيب قلب حبيبها فيَهِيمُ بها عشقًا ويعيشا معًا في سعادة أبدية. إن الحياة الأسرية في إيطاليا لا تختلف كثيرًا عن الحياة في الشرق في كثير من المظاهر الاجتماعية من حيث: الروابط الأسرية العميقة، والعاطفة الجيَّاشة، فتجد الارتباط المذهل بين أفراد الأسرة الواحدة، واحترامهم الزائد بينهم، وتوقيرهم لكبار السن فيهم، ويظل الأب أو الجِد هو رأس العائلة الذي يأمر فيُطاع، ويجْتمع حوله كل صغير وكبير من أفراد العائلة. ومن المشهور أيضًا في الحياة الإيطالية وجود العائلات الكبيرة في المدن والقرى منذ قديم الأزل، وتجد المدينة مُقَسمة باسماء مثل.. عائلة (مديتشي.. فرانزولو.. سرجيوفانى).. وغيرها من العائلات، مثلما يوجد في مصر وخاصةً في قُرَاها من العائلات الكبرى التى لها تاريخ عريق مُمتد الجذور.

وتتعاقب الأيام والليالي، ويجتهد سمير في عمله، ويتقدم على كل الموجودين معه، ويُثْبِت براعته، وتَنْهال عليه التهاني والتشجيع المستمر من زملائه ومشرفيه، وكان بن رحمة من أكثر الشخصيات التى كانت تهتم لأمره وتشجعه، فقد نشأ بينهما وُدًّا وصداقة غريبة من النوع الذي لا يُمْحَى بمرور الزمن.

طرقات متتالية على الباب الخارجى لمنزل الحاج مصطفى الزيان.. وكأن هذا الطارق في عجلة من أمره.. علت الدهشة أفراد الأسرة المجتمعين على طبلية الإفطار الصباحى.. ولم يكمل الحاج مصطفى تناول قهوته بعد.. فقالت له زوجته...

- من سيأتى لنا في هذه الساعة.. استر يارب..

قامت فاطمة لتفتح لهذا الطارق فإذا بهلول يَلْهَث من الجرى، وأخذ يتكلم بسرعته المُعْتادة فلم تفهم منه شيئًا، فقادته إلى الداخل، وأجلسته حتى يأتي إليه والدها، وذهبت من فَوْرها فأحضرت شايًا وفطيرة. قال له مصطفي:

- اهدأ يا بهلول.

وأعطاه الشاي والفطيرة، وقال له:

- كُلْ هذه واشرب الشاي أولاً.

ولكنَّ بهلول رفض ذلك بعصبية ظاهرة، وأراد أن يتكلم أولًا وكأنه قد جاء لخَطْب جَلَل قد حدث.

فقال له مصطفى وهو يُهَدِئ من رَوْعِه:

- تكلَّم يابهلول ولكن بهدوء كى أفهمك.

بعد عناء فهم مصطفى أنَّ أحدًا قد استمال بعض الفلاحين الذين يعملون عنده في حصاد القمح وذهبوا معه إلى حقل العمدة، ظهر الغضب على وجه مصطفى وقال له:

- كيف ذلك ومَنْ هذا الذي يَجْرؤ على فعل هذا الأمر؟

قال له بهلول بحروفه المُتَلَعْثِمة الناقصة.

- (اباهيم تهمى)..

عرف الحاج مصطفى الاسم، إنه هو ذلك السَّفيه المُتَلَوّن إبراهيم أبو تهامي.

قال له:

- كم فلاحًا ذهب معه؟..

أشار بهلول على أصابعه بأنهم ثلاثة فلاحين، أطْرَق مصطفى برأسه وكأنَّه يفكر، وقال لبهلول:

- اذهب أنت وكُن مع الفلاحين، وسوف ألحق بك.

كانت عائشة قد وَضعت بعض الفطائر في كيس من القماش، وأعطته لبهلول الذي رفع يديه لأعلى في وضع الدعاء وتمتم ببعض الكلمات. وأخذ الكيس وانطلق إلى الحقل مرة أخرى.

قالت عائشة تُهَدِئ زوجها الذي ظهرت على وجهه علامات الغضب:

- مابك ياحاج؟ لا يهمك شيء الفلاحين الذين يعملون بالأجرة كُثْر، والباقي الموجود فيه الخير والبركة.

نظر إليها مصطفى وقال لها:

- ليس الآن يا عائشة إنَّه مَوْسِم الحصاد، وكل مَنْ لـه أرض يتعب في الحصول على فلاح واحد يعمل عنده.

فقالت فاطمة مُهَدئِة من ثَوْرة أبيها:

- يـا أبـي إنَّ معظـم الفلاحـين يحبونـك ولا يمكـن أن يتركـوك فـي مواسم الحصـاد، فأنـت طيـب معهم وكريم، أمـا ضِـعَاف النفوس الذين ذهبوا مع ذيْل الأفعى هذا فنحن لسْنَا بحاجـة إليهم والبركـة فـي الموجود من الفلاحين. وإذا دعت الحاجـة سـأكون أول من يعمل في الحصاد. أنسيتَ أنك أنجبت ولدين؟

فضحك مصطفى وقال لها:

- بـل ولـد واحـد، وأميـرة، أمـا الولـد فـأدعو الله أن يُنْهِـي سـنوات غربتــه علــى خيــر، أمــا الأميــرة ســيكون زواجهــا بعــد مَوْسِــم الحصاد.

عَلَت حُمرة الخجل وجه فاطمة، وقالت له:

- طالما كذلك فأنا الأميرة المنتظرة على أحَرّ من الجَمْر..

فضحك الجميع وقالت عائشة:

- يالك من مشاكسة، ربـي مـا يحرمنـي من ضـحكاتك ولا وجودك أنتِ وأخيك، أمَّا مصطفى فكان يقصد شيئًا بعيدًا ليس مايزعجه ذهاب فلاح أو أكثر، ولكنْ هناك شيء آخر، لقد تجرَّأ كلب من كلاب العمدة أن ينبح في محيط تواجد كبير عائلة الزيان، بل إنـه

كَشَّر عن أنيابه وقَضَم شيئًا لم يَسمح له بأخذه، وإنْ سكت فسوف يتجرَّأ على ما هو أكبر فقال:

- إنَّ هذا الشقي له عندي تدبير آخر.

انطلق مصطفى في سيارته النصف نقل، حتى وصل إلى حقله وتَمَمَ على الفلاحين الموجودين في أرضه وفهم ماحدث من المسؤول عن العاملين معه، كانت أرض العمدة تبعد عن أرضه بعِدة حقول، فانطلق إلى أرض العمدة فوجد عددًا من الفلاحين يقومون بحصاد القمح، بينما يقف إبراهيم أبو تهامى منتصبًا في وسطهم، وبمجرد رؤيته للحاج مصطفى اضطرب كثيرًا وَ وَدَّ أنْ يختفى أو تنشق الأرض وتبتلعه هكذا يكون الجبان دائمًا. فكيف سيواجه هذا الأسد الذي لا يخشى أحداً ولا عُمدة القرية نفسه بجبروته واتصالاته؟ وأين هو العمدة كى يدافع عنه؟ وقف مصطفى الزيان ونادى بأعلى صوته على إبراهيم أن يأتى إليه مسرعًا. أشْرَأبَت رقاب الفلاحين الذين يعملون عند العمدة وتَوَجَسُوا شرًا كبيرًا سوف يحدث حالًا؛ حتى وصل إليه خافض الرأس، فقال له بصوت زلزل أعماقه وارتعدت فرائصه:

- كيف تجرؤ ياعديم الأصل أن تقوم بفعلتك هذه؟ أنسيت من هو مصطفى الزيان؟

فقال له مُتلَعْثِما خافض الرأس:

- وما شأني بذلك، إنَّ الفلاحين هم الذين أتوا معى عندما علموا أن أُجْرة العمدة أكثر من أجرتك.

فانتفض مصطفى غاضبًا وقال له:

- أه يا خسيس ومَنْ قال لهم عن أُجْرة تلك اليومية المزعومة.. ألَسْتَ أنت؟.. ورفع يده وأنزلها على وجهه كان صوْت الصَّفْعة عاليًا مما جعل الفلاحين يخفضون رؤوسهم وظهورهم ويعاودون العمل في صمت، وأرْدَف مصطفى قائلًا:
- قل للعمدة عيب عليك ليس الحاج مصطفى مَن تمارس معه هذه الألاعيب، انصرف من أمامى يا ملعون والديك، ولا تعد لها مرة أخرى، ثم تركه وانصرف إلى عماله

كانت هذه الواقعة سببًا رئيسيًا لكُرْه إ براهيم أبو تهامى للحاج مصطفى بعدما أهانه على الملأ وأمام الفلاحين، فلم ينْسها له وأضمر في نفسه الشر الكثير، وصل الخبر إلى عمدة القرية.. فضحك وقال له مازحاً:

- يالك من داهية يا بن تهامي مصطفى الزيان مرة واحدة.

فتحسَّس إبراهيم وجهه، وقال له وهو يَنْوى على شيء.

- غدًا سترى إبراهيم أبو تهامى ماذا سيفعل.

أكمل العمدة ضحكته مُتشفيا في مصطفى الزيان عدوه اللدود، وقال بخُبْث واضح:

- سوف نرى.

عاد سمير من العمل مرهقًا، كان يسمع صوت بطنه تُقَرْقِر من الجوع، فهو لم يتمكن من الذهاب إلى المطعم كعادته فرجع إلى البيت كى يحصل على قسط من الراحة أو النوم، ثم يذهب لتناول الطعام في مطعم (توسكانو) المفضل، الذي بُنِى على رَبْوَة مرتفعة تُطِل على منظر بديع من الجبال المُغطاه بالعشب الأخضر وجداول المياه الصغيرة التى تَتَلوى كثعبان وتختفي بين ثَنِيأَّت الجبل.. - كانت رائحة الزهور تعبق أرجاء الشقة -. نظر ناحية اليسار حيث طاولة الطعام الصغيرة، فوجدها قد رُصَتْ عليها أطباق بها مالذَّ وطاب من الطعام ذي الرائحة الشهية.. وموسيقى هادئة تنبعث من داخل غرفة صوفيا، فقال لنفسه: ياله من توقيت سيء، كيف سأنام ورائحة هذا الطعام تتخلل إلى معدتى الخاوية التي تصرخ من الجوع؟ - سامحك الله يا صوفيا - ومَنْ هذا سعيد الحظ الذي قد أعدت له هذا الطعام..؟.. أيعقل أنها قد دعت أحدًا لتناول العشاء؟ كيف لها أن تفعل ذلك بدون مشورتي؟ ألم أشاركها هذه الشقة.. ولكن تذكَّر أنَّ هذا البند لم يُذْكَر في بنود اتفاقها معه، فقال لنفسه: لماذا أتدخل فيما لا يعنيني؟ ثم اتجه إلى غرفته وأغلق الباب من الداخل وارتمي على السرير بملابسه ووضع الوسادة على رأسه لعله يغفو ولو دقائق، ولكن طَرَقات خفيفة على الباب جعلته يقف مسرعاً؛ ليفتح فإذا صوفيا تقف أمامه وقد ارتدت (روبًا) من الحرير بلون ذهبي يكشف عن رقبة بيضاء، ومفتوح عند الصدر يبرز جمال نَهْدَيها، وابتسامة رائعة على شفتيها فقال لها مندهشًا:

- خيرًا يا سنيوريتا.؟

فقالت له مداعبة إياه:

- هيا أيها الكَسول لقد أكلنى الجوع في انتظارك.

كانت مفاجأة كبيرة لم يتوقعها سمير، فقال لها مندهشًا؟:

- في انتظارى أنا؟!

قالت له: ومازالت ابتسامتها الجميلة على شفاهها ونظرات عينيها المملوءة حبًا وشوقًا: ومن غيرك إذن.

فرفع يديه بالدعاء وقال بصوت عال بالعربية:

- يا بركة دعائك يا أمي.

لم تفهم صوفيا ما قاله، واستعجبت من هذه الحركة المفاجئة وهذه الكلمات التي لم تفهمها، فنظرت إليه كأنها تستحثه أن يشرح لها مافعله الآن، فترجم لها هذه الكلمات فعَلا صوتها بضحكة جميلة ناعمة، وسبقته تتهادى إلى الطاولة وتبعها ثم سبقها حيث أزاح كرسيها وبحركة تمثيلية، أَمَال جِزْعه قليلاً ثم بيده وقال لها:

- تفضلي يا سنيوريتا.

ثم استدار للجهة الأخرى وجلس على الكرسي المقابل شعرت بامتنان على تصرفه (الجنتلمان) هذه أول مرة يجلس معها وجها لوجه، هكذا أول مرة يرى جمال عينيها الحقيقي وشعرها المُسْتَرسِل على كتفيها بلون الذهب، بل ويتناول معها طعام هى أعدته بيديها، فهو كما لاحظ عليها سابقًا أنها من رعايا المطاعم والوجبات السريعة مثله تماما، الوقت والعمل لا يُسْعف من هم على شاكلتهم بالوقوف في المطبخ وإعداد هذا الطعام، وبدأت تَغْرف له الأكل وتَضَعْه أمامه كزوجة محبة

متفانية في خدمة زوجها وإرضائه وهو يتأمل هذه الشعيرات الذهبية التى تنساب على وجنتيها، شكرها سمير على هذا الكرم المفاجئ بهذه الوليمة الشهية، فأومأت له بإشارة أن يأكل بدون شكر أو كلام، لم ينتبه سمير إلى أنه كان يلتهم طعامه بسرعة وكلما فَرُغ طبقه تغرف له ثانيا، وكأنه افتقد طعام البيت الذي لم يتذوقه منذ سنوات، بينما صوفيا اكتفت بالنظر إليه في إعجاب شديد. وقالت له:

- أهكذا تعاملون النساء في بلدكم؟

اندهش سمير من هذا السؤال المفاجئ، وقال لها:

- وأيُّ غريب في ذلك؟
- إنني أعلم أن نساء الشرق ماهُنَّ إلا جواري عند الرجل، وليس لهُنَّ حقوق عليه إلا المأكل والسكن.

رفع سمير رأسه واعتدل في جِلْسته وقال لها:

- إن معلوماتك مشوهة يازميلتي العزيزة، المرأة في الشرق هي تاج الرجل وجوهرته الثمينة. هي مليكته. من أجلها قد قامت حروب..، ومن أجلها قد أُنْشِئت مدن وبلدان. إن الإسلام قد أعطى للمرأة حقوقاً لم تأخذها في مجتمعاتكم هذه..، أوَ تدرين أن المرأة من حقوقها ألا تخدم الرجل في شيء. وإذا عملت فإنَّ عملها لنفسها فقط تصرف منه كيفما شاءت، فهذه ذِمتها المالية الخاصة بها. والرجل مُلزم أن يصرف عليها. إنَّ الشرق قد جعلها ملكة، وأميرة، وطبيبة، ومديرة، إذن فمن أين أتيت بهذه المعلومات المشوهة؟..

كانت صوفيا تستمع لكلامه باهتمام بالغ، ولاحظ سمير أنها لم تأكل بعد، فتوقف عن المضغ ثم قال لها:

- لماذا لا تأكلين؟

فضحكت لملاحظته المتأخرة، وقالت له:

- لنا حديث مطولًا عن العرب ومصر خصيصًا. ومدت يدها لتأكل على مَهَل. بعد الانتهاء ساعدها سمير في رفع الأطباق وشكرها على هذه الوجبة الساخنة الجميلة، ثم جلسا على الأريكة يتحدثان عن أعمالهما الفنية، وذكر لها سمير ماحدث في لقائه مع بن رحمة وهذا الرجل الذي اسمه (كالوتشي مانزيني) وما اتفقا عليه. فإذا صوفيا تقف فجأة وتصرخ فرحةً عندما سمعت اسم هذا الرجل. وقالت:
- ألا تعرف من هو؟... إنه سُلم المجد الذي ستصعد عليه إلى الشهرة، والأضواء والأموال،.. إنه توقعى لك منذ اللحظة الأولى التى شاهدتك تعمل فيها،

وبطريقة عفوية ارتمت بين ذراعيه، وطبعت قُبلَة خاطفة على وجنته ثم ارتدت مسرعة وقد اكتسى وجهها بحمرة الخجل. استوعب سمير الموقف وأدرك أن صوفيا تحبه فعلًا. فأمسك يديها ونظر بعينيها الزرقاء الصافية كزرقة السماء في نهار الصيف، وقال لها:

- أتحبيننى؟

فهزت رأسها في صمت بالإيجاب، فقال لها:

- وأنا أعشق طيفك الجميل كلما مرَّ بى، أعشقك من أول نظرة وقعتْ عيني عليك، لقد أحببتك من أول يوم وتمنيتُ صداقتك ومحبتك، ولكننى دائمًا ماكنت أتذكر كلامك، فأعود أدْراجى لنقطة الصفر كنت أخاف أن تصفيني بالهَمَجيّ أو بمَنْ لا يُقَدِّر العواقب جيدًا، احترمتُ وعْدي لك بالالتزام بغرفتي وما يسمح لى من تحركات في الشقة.

نظرتْ صوفيا إليه مطولًا وقالت له:

- يالك من غبي، لقد أضعت منَّا ليال طويلة بسذاجتك، وصمتك المقيت، لقد تمنيت أن تقتحم عليّ الغرفة، كم تخيلت نفسي بين ذراعيك!.. كنت ستجدنى في انتظارك لتطفئ لهيب شوْقي إليك.

ثم تلقَّفت شفاهه وراحت في قُبْلة طويلة بثَّته فيها كل حُبها وشوْقها إليه، أما سمير فقد نسى نفسه والعالم نسي من أين أتى ولماذا أتى؟.. لم يشعر إلا بجمال اللحظة. وتفجرت في أعماقة أحاسيس النشوة، وتوالت القبُلات الحارة، والليالي الساخنة وأصبح سمير هو رجلها وحبيبها، وأصبحت صوفيا هي امرأته وحبيبته وناقدته الفنية، والتحق بالعمل في مؤسسة مانزينى. وتعلم كل أسرار المهنة وبرع فيها. وبدأت شهرته تتسع تدريجيًّا بعدما أصبح عضوًّا دائمًا في المسابقات الفنية وتدفقت عليه الجوائز المعنوية والمادية، وارتفع اسمه بين مشاهير الفنانين في إيطاليا في تخصصه النادر، وأمسى كريمًا جدًا مع صوفيا فقد أغْدق عليها بالهدايا الثمينة والملابس الفاخرة كلما انتهى من مشروع عمل في المؤسسة..

كان سمير يتحدث دائمًا مع صديقه التونسي بن رحمة، ويُطْلعه على أحدث المُستجدات عن أعماله وحياته، فكان يشجعه دائما ويتمنى له المزيد، ولكن عندما تأتي سيرة صوفيا فإنَّه يتردد في الحديث وكل ما كان يقوله " احترس ولا تتسرع في عواطفك، ولا تنس أنكما من عالمين مختلفين ". ولكنَّ سميرا لم يأبَه لكلامه فهو يحب صوفيا وهي أيضًا تحبه. فلماذا لا يتزوجان؟.. وأخذ يفكر طويلاً.. لماذا لا أتزوجها وأعيش معها لاحقًا في القاهرة؟.. سوف أرسل لأبي وأمي كي يباركا هذه الزيجة. فهما يتمنان لى السعادة طالما أنني سعيد في حياتي..، فأرسل خطابًا لوالده الحاج مصطفي مشفوعًا بصورة لصوفيا، وحكى له ماقامت به صوفيا من أجله في بلاد الطليان. وكيف أصبح الآن من علم وشهرة في مجاله؟... وعدد محاسنها، وطهيها، واهتمامها به طيلة هذه السنوات الثلاث المُنْصَرِمة، وجاء الرد سريعًا مقتضبًا.. بالموافقة.، فاشترى خاتمًا ثمينًا مرصعًا بالجواهر. ثم دعاها للعشاء خارج البيت في مطعم موريانا المطل على نهر أرنو الذي يقسم البلدة إلى شطرين، ويعد هذا المطعم من أشهر مطاعم فلورنسا وأفخمها، كانت أُمْسِيَة جميلة على أنغام الموسيقى، والشموع، ونسمات جميلة تَهُبُ عليهما من النهر. أما صوفيا فكانت في أبهى صورها. تلبس فستانا أسود اللون يبرز مفاتنها وقد رفعت شعرها لأعلى في ربطة جعلت وجهها يضيء على إضاءة الشمعات على الطاولة. أمسك يدها ونظر في عينيها وقال لها:

- صوفي أتعلمين كم أحبك؟

فقالت له وهى باسمة الثَغْر:

- أعلم أننى أحبك أضعاف حبك لى.

- لو قلت لك أنني أريد أن أحيا معك حتى آخر العمر فماذا ستقولين؟..

صمتت صوفيا لبُرْهَة وقالت له:

- نحن الآن معاً. وأنا لا افكر في الغد، قد يحمل لنا الغد شيئًا لا نريده ولا نتوقعه، عِشْ لحظاتك معي الآن كما هي ولا تفكر بشيء آخر، نحن أبناء اليوم:
- ولكن هذه الحياة التى أحياها معك برغم جمالها وإحساسي بأنني أحيا في الفردوس لا تناسبني كرجل شرقي له معتقداته وديانته، أنا أريدك كزوجة وليس كعشيقة.

وأخرج من جيب الجاكيت الداخلى عُلْبة صغيرة مُغَطاه بالقطيفة الحمراء ومدها إليها وقال لها:

- افتحى هذه العلبة.

خرجت من فمها شهقة عالية جعلت من يحيطون بهما من رواد المطعم ينظرون إليهما بابتسامة. فهذه الشهقة لا تخرج إلا لمناسبة جميلة: كمناسبة زواج مثلاً نظرت إليه صوفيا في سعادة بالغه يكاد وجهها يُضيء المكان، ثم مالت عليه وطبعت قُبْلة على شفاهه. توقفت وارتبكت واحمرَّ وجهها وامتلأت عينيها بالدموع. وكأنها قد تذكَّرت شيئًا رهيبًا. نظر إليها سمير وهو يعتقد أن هذه الدموع هي دموع الفرح كما يقولون في مصر، ولكنَّها بدت جادة وقالت له:

- كم يُسعدني أن أرتبط برجل مثلك. رجل بمعنى الكلمة يُحبنى بعمق وبرزانة، ولكننى كنت أخشى هذا التوقيت بالتحديد.

فتسائل سمير مندهشا:

- ما بك ياصوفيا؟.. أحدث شيء لا أعرفه؟.. تكلمى.

ولكنها لاذت بالصمت بينما دموعها مازالت تأخذ طريقها على وجنتيها، فأخرج سمير مِنديله وأعطاه إياها،.. قالت بصوت يشبه البكاء:

- إنَّ عادات أسرتي وتقاليدها تمنع هذا الزواج.

وضع سمير الخاتم في جيبه وقد ظهرت عليه الجدية وقال لها:

- دعى الامر لى فسوف أقنع أسرتك.

فقالت له ومازالت دموعها تنهمرعلى وجنتيها:

- إنَّ عائلتي تنتظرعودتى إلى الشمال؛ كى أتزوج رجلًا من العائلة وأنجب أطفالًا كُثر،.. إنهم يعتزون بعرقهم ويحافظون عليه من التشتت في أعراق عائلات أخرى، بل ويقاتلون من أجل. وأنت إنْ ذهبت إليهم فالمصيبة أكبر،.. فإنك عربي، وبعيد جدًا عن عِرْقنا ولست إيطاليًا، فمِنْ المُتوقع أن يصيبك مكروه منهم. أو يقتلوك. هذه عادات راسخة منذ الأزل. أنت صديقي وستظل صديقى طول العمر، إذا كنت تريد ذلك.

سكت سمير لوَهلْة وكأن ناقوساً قد دق في عقله هذه اللحظة، فأردفتْ صوفيا وكأنها تُهَدِئ من رَوْعِه:

- وأنت الآن قد شققت طريقك بنجاح ولستَ بحاجة إليّ أن أكون بجوارك.

أمسك سمير يدها ثم قبَّلها قُبلة حانية كانت تنظر إليه والدموع تغطي هذه البلورتين الزرقاوين. وقالت له وهي تنتحب بصوت عال:

- أنا آسفة ياحبيبي.. كان لابد ألا أضعف أمامك.

ثم أردفت وهي تغطي عينيها بيدها الأخرى وتتكلم بصوت هادئ كأنها تكلم نفسها:

- ولكن أين هي هذه السيدة التي يمكن أن تصمد أمام هذا الرقي في التعامل والرجولة التي تظهر في جميع تصرفاته..؟ على ما أظن لا توجد.

هنا أوقفها سمير عندما سمع الموسيقى بدأت تصْدَح.. وقال لها مازحًا كي يخفف عنها:

- عقابًا لكِ سوف أرقص معكِ..

وهنا انفجرت صوفيا في الضحك، وأخذ سمير يمسح دموعها التي تنساب على وجنتيها ثم سار بها حتى منتصف القاعة وقال لها:

- ماذا افعل؟.. أنا لم أرقص سابقا..، أه لو رآني أهل القرية الآن. كانوا أهدروا دمي

ازدادت ضحكات صوفيا لدرجة أن الحاضرين في المطعم تركوا الطعام وأخذوا ينظرون إليهما..، ثم أمسكت يده ووضعت الأخرى على كتفه وأشارت إليه أن يَحُوط خِصْرها باليد الأخرى..، فعل سمير ما أشارت إليه وكانت أولى خطواته أن داس على قدمها فصرخت ضاحكة، في هذه اللحظة سرَت حُمَّى الضحك في الجميع فتعالت الضحكات..، وبعد

قليل بدأ التصفيق من رواد المطعم عندما شاهدوا سمير يتمايل بخطوات مشابهة لخطوات صوفيا كأنهم يشجعونه. حتى انتهت الموسيقى ورجعا إلى منضدتهما.. نظرت إليه صوفيا نظرات فيها من التقدير والاحترام. كيف أخرجها من الحزن والدموع بتصرف بسيط وعفوي قد يسبب إحراجًا له، ولكن لم يتوَرَّع في أن يفعله، ما هذه الشخصية الآثرة! كيف يارب استطيع أن أتخلى عنه؟.. حرَّك سمير يده أمام وجهها كي ينبهها:

- هيه.. أين ذهبتِ أيتها الفاتنة؟..

انتبهت صوفيا لحركة يده،.. ونظرت إليه وهي تتشبث بيده:

- أرجوك لا تغضب مني.. ودعنا نكون أصدقاءً للأبد
- كيف أغضب منكِ وأنتِ روحي، وكيف أغضب من روحي وقد هامت بكِ

أغمضت صوفيا عينيها وتمتمت:

- يالك من فنان وشاعر
- أشكرك يا فنانة.. هذا قليل عليك، هيا بنا حتى لا نتأخر؛ عندنا عمل شاق غدًا.

قام سمير من مقعده واتجه إليها كي يزيح مقعدها حتى وقفت وشكرته، ثم قال بطريقة مسرحية: تفضلي سنيوريتا..، ثم قالت له ضاحكة: جراتسي سنيور.

كان سمير يُضْمِر في نفسه أمرًا.. وقد عقد العزم على تنفيذه.

نشأ مختار في بيت العمدة مدللا فهو الابن الوحيد على ثلاث بنات،.. فكل ما كان يشتهيه يجده بمجرد الإشارة إليه ووصل التدليل أن أهمل دراسته وأصبح النجاح مجرد شهادة يأخذها قْسرًا من مدرسة القرية، بينما أقرانه كانوا يتفوقون عليه ذكاءً وعلمًا، ويَكِنُّون له كل البُغض والكُره؛ لأنه كان يغتصب كل ما في أيديهم اغتصابا وعُنْوة، وكان حب التملك عنده ظاهرًا للجميع حتى نفِروا منه إلا بعض من التلاميذ المغلوبين على أمرهم، والذين كانوا يرْهَبون بَطْشه وتطاوله عليهم. كانت ألعابه دائمًا تعتمد على الإيذاء والتعذيب سواء للحيوانات الصغيرة مثل: الكلاب، والقطط..، أو حتى الفلاحين الفقراء الذين يعملون عند أبيه العمدة، ولا تجد غير الابتسامة الواسعة من العمدة كأنه يُشجعه على مواصلة أفعاله. تعلَّم أن يأخذ فقط، وأن يكون هو محور الاهتمام في كل مكان، إلا مكان واحد لم يفلح في أن يكون له الأهمية أو الاحترام الذي يَنْشده، عندما يجتمع مع صديقه اللدود.. سمير الزيان. فكان دائمًا يحظى بالاهتمام الثاني أو الثالث؛ فيعتمل الغيظ والكره في قلبه تجاهه وتأكله الغيرة والجنون أيضًا، عندما يلتف حول سمير هؤلاء الفِتْية المميزين علميًا وخُلقيا في المدرسة، بينما يبقى معه من هُم على شاكلته من الأغبياء والفاشلين دراسيًا، وبعض الذين يخافون جبروته وسطوته. أما رجاء الطوخى هذه الطفلة الجميلة المتفوقة، والتى كانت تصغرهم بعام صديقة، فاطمة الزيان أخت سمير، وكان من الواضح انحيازها إلى سمير وفاطمة فكانت تلعب مع فاطمة، وتشارك أخاها الأحاديث المطولة وترفض دائمًا مشاركة مختار تُرَّهاته وأفعاله، فكان سببًا قويًا آخر في نمو الحقد والغِل في صدره تجاههم، وأصبح هذا الشعور يَكْبر تدريجيًا حتى بات يتمنى اختفاء سمير من الوجود؛ كي لا تجد رجاء أمامها إلا هو، فتميل له وتبادله الإعجاب، وكَبِرت القلوب الصغيرة بما فيها من

عاطفة الحب من ناحية والكُره والبُغْض من ناحية أخرى، إلى أنْ وصلوا إلى المرحلة الثانوية، فالتحق سمير بكلية الفنون. وبعدها بعام كانت " رجاء وفاطمة في كلية التربية، أما مختار ففشل فشلاً ذريعًا للمرة الثانية، ولكنْ ما أهمية الشهادات مع ابن العمدة وولى عهده. فهو بإشارة من أصابعه يُحرك الأحداث حوله، وأصبح مختارعلى صغر سنه هو عمدة القرية الخفي، وبدأ نشاطه المُعتاد في الإيذاء ومطاردة الفتيات والتحرش بهم بمساعدة التهامي وحاشيته، وكَثُرَت الشكاوى للعمدة، ولكنْ دون جدوى؛ فزاد جبروته وأصبح ظلمه عَيَانًا، وكان غياب الكثير من شباب القرية في دراستهم وأشغالهم في المدن قد أتاح لمختار أن يُوَسِّع دائرة جبروته..

صوْت أم رجاء يأتي من خارج الغرفة:

- أسرعي يا بنيتي، إن الحاج مصطفي وفاطمة في الانتظار.

ردَّت رجاء بعدما أنهت ارتداء ملابسها، ووضعت مايلزم من أدوات في حقيبتها

- حاضر يا أمي.

كان البيت صغيرًا مَبْنِيا بالطوب اللَّبِن، تظهر البساطة والفقر في أثاثه وطلائه الذي قد تقّشر معظمه، يضُم ثلاث غرف منها: غرفة للضيوف بها بابان واحد على الشارع بجوار مدخل البيت، والباب الآخر يؤدى لباقي البيت حيث الصالة الصغيرة التى تُعَد بالنسبة لهم حُجْرة الجلوس والطعام في نفس الوقت، والغرفتان الأخريتان فواحدة لرجاء، والثانية لوالديها.

خرجت رجاء مسرعةً فلحقتها أمها؛ كى تعطيها الفطور الملفوف في كيس من البلاستك، فأخذته وطبعت قُبلْة سريعة على وَجْنَة أمها، وقالت لها: ادعي لي يا أمى اليوم هو آخر امتحان البكالريوس، ثم خرجت وأمها تمطرها بسيل من الدعوات، وركبت السيارة المنتظرة أمام البيت وقالت:

- صباح الخير يا عم الحاج..

فرد مصطفى تحيتها بوجه باش

- صباح الخير يا ابنتى العزيزة

فوَكَزَتْها فاطمة وقالت لها مازحة.

- صباح الخير لعم الحاج فقط، هل أنتِ عمياء.. أم أنا شفافة لا ترينى؟

فضجَّ الحاج مصطفى ورجاء من الضحك وقال لها:

- الله يجازيكِ يا فاطمة، ماذا تقولين؟

فردت عليها رجاء:

- يا بطتى العزيزة.. كيف تقولين ذلك؟.. وهل في القلب غيرك أنت؟

فقالت فاطمة وهى تهمس:

- بالطبع فيه ويحتل كل قلبك.

فقرصتها رجاء في ذراعها؛ فتَأوَهَتْ فاطمة من الألم وهى في نوبة من الضحك قد اندهش منها الحاج مصطفى فأعقب معلقًا.

- ربِّي يسعدكما ونفرح أولًا بشهادتكما.

فنطقت الفتاتان في صوتٍ واحدٍ:

- يااارب.

كانت رجاء الصديقة والخليلة المفضلة لفاطمة الزيان، وبالرغم من التفاوت الكبير بين مستوى الأسرتين المادي، إلا أنه لم تشعر أي من هاتين البنتين بهذا الفارق، بل كانت رجاء كالأخت التوأم لفاطمة الزيان

منذ نعومة أظفارهما؛ فهُما لم تفترقتا إلا عند النوم. كان كل وقتها في اللعب في بيت مصطفى الزيان حتى كبرتا، وظهرت عليهما علامات النضوج والمراهقة؛ فامتنعت رجاء من الذهاب إلى بيت فاطمة في الأوقات التي كان سمير يحضر فيها من القاهرة كي يزور والديه في عُطْلات الكلية.

تمتاز رجاء بقوة الشخصية والجدية في التعامل مع الناس، مع جمال هاديء ووجه أبيض مستدير، وجسد متناسق تُحسد عليه، وجودها الدائم في بيت الزيان وارتباطها اللصيق بفاطمة قد اثار الكثير من الاقاويل؛ فرشحوها كزوجة مستقبلية لسمير الزيان الذي يعيش في القاهرة، كان الجميع يُبارك هذا الارتباط لو قدَّر الله له النجاح وأولهم عائشة فكانت دائما تدعو بذلك جهارًا أمام رجاء؛ فيَحْمر وجهها خجلًا وتختفي من أمامها مسرعة بينما قلبها يكاد أن يتوقف من سرعة الضربات، فهى تعيش على هذا الحلم منذ طفولتها مع سمير، وتتذكر تلك الأيام التى كانت تجمع ثلاثتهم وهم يخوضون في مناقشات وأفكار وحكايات لا تنتهى، كانت تشعر به وبإعجابه بها دون أنْ يَلْفُظ لها بكلمة واحدة، كان إحساسه مُغلف بالاحترام والتقدير لها ولأسرتها، وكانت فاطمة هى همزة الوصل بين مشاعرهما البريئة البِكْر، فكان الحب في صمت في هدوء تتحدث العيون بينما اللسان منعقدًا، كانت المشاعر أنذاك جميلة وصافية لا تَشُوبها شائبة، ولكن أين سمير الآن؟ لقد تخرّج من كلية الفنون ومالبث أن سافر إلى إيطاليا، كانت الأيام ثقيلة عليها وفي نفس الوقت سريعة مُهرْولة كقطار أرْعَن ينهب أرض عمرها نهْبًا، كانت على استعداد أن تنتظره طول العمر بمجرد وعد منه أو كلمة، ضاربة بعرض الحائط للمَزَات وغمزات المتكلمين من خلفها والخائضين في

سيرتها حتى وصلت إلى الشرف، ولكنَّ كان خبر زواجه بالإيطالية قد وقع عليها كالصاعقة، وأخذت تندب حظها التعس وأيامها التى راحت سُدى، وكرد فعل عكسي قررت أن توافق على أول عريس يتقدم إليها حتى تُخْرِس الألسنة وتُريح قلب أبيها وأمها من هذا التساؤل الذي يظهر دائمًا في أعينهما. وكصيادٍ ماهر لم يتوان مختار الغنيمي في اقتناص هذه الفرصة، فهو يريد أن يتزوجها فقط لإذلالها والانتقام منها على رفضها له طيلة طفولتهما وشبابهما، فأرسل المتحدث الرسمي لعائلة العمدة إبراهيم أبو تهامي كي يقنع أباها في هذه الزيجة، التى قد تنشلهم من فقرهم وتفتح لهم آفاق الثراء والغنى، ومَن سيرفض ابن العمدة خيرة شباب القرية، وولى عهد سلامة الغنيمى، ووريث كل هذه الاطيان والأموال المُكدسة؟!.. وكان لكلام إبراهيم أبو تهامي مفعول السحر في عقل أبيها الذي وافق على الفوْر، ولكن كان حبه لابنته واحترامه لرأيها فهي المتعلمة والمثقفة وثمرتهم التى راعوها بدمائهم وعرقهم؛ حتى انبتوها نباتًا حسنًا فتدارك ذلك على الفور، وقال لشيخ الخفر:

- اسمع يا شيخ الخفر، لا يجرؤ أحد أن يرفض نسب عمدتنا ولا ابنه مختار بيه، وهذا شرف له فأنا موافق على هذا النسب بكل سرور، ولكن كما تعلم فإن ابنتنا ليستْ جاهلة أو غير متعلمة فهي ستتخرج معلمة تربي أجيال هذه القرية، ومن الإسلام أن آخذ رأيها، ومن حبي لها وتقديرى لابنتي أن احترم رأيها.

قَضَّب شيخ الخفر حاجبيه وقال له بعصبية:

- وهل للبنات عندنا رأي يا طوخي؟! أم هذا رفض مُقنَّع، أم أن وجودي ليس له أهمية في ذلك؟؟؟.

فتنحنح الطوخي مُتداركاً، وقال له بهدوء:

- العفو ياشيخ الخفر، وجودك على رأسي وشرف لي، انتظر مني الرد باكرًا بإذن الله.

فقال له إبراهيم بكل تحدٍ وعنادٍ وقد غُلِفَتْ نبرته شيئًا من الوعيد قد فَهِمها الطوخي فورًا:

- بل الآن ياطوخي، وسوف أرجع لمختار بيه بالخبر اليقين الذي يسعده، قمْ يارجل واعرف أين مصلحتك.

لم يجد الطوخي مفرًا إلا أن يذهب إلى رجاء ويخبرها بهذا الامر، ولكنَّ رجاء قد سمعت كل الحديث من خلف الباب هي وأمها، كانت أمها مثل أبيها من البساطة في أن توافق هي أيضًا على هذه الزّيجة التى قد تعوضهما عن ابن الزيان، ولكنَّ رجاء كانت لها رأي آخر، فقالت لأبيها بصوت عال كي تسمع إبراهيم التهامي:

- اسمع يا أبي، والله لو أقعد راهبة أو عانسًا مدي حياتي أشرف لى وأكرم من أن أتزوج هذا الفاشل الفاسد ولو وَزَنُوه ذهبًا، وهذا رأيي. قُله لهذا الرجل الذي لا يعرف الذوق ولا احترام البيوت.

فأشار الطوخي لها بيده أن تهدأ؛ حتى لا يسمع شيخ الخفر كلامها فيضعها في نفسه وهم يعرفونه جيدًا، فهو أساس كل المصائب في هذه البلدة، فقالت له:

- يا أبي أنا لاأخاف إلا الله.. قُل له إنَّ طلبه مرفوض.

دخل الطوخي الغرفة فوجد الرجل قد خرج من الباب الآخر المُطل على الشارع وهو يتوعد، فقال لها:

- يا ابنتى لقد خرج الرجل غاضبًا، وهذا الرجل ليس من السهولة أن تتقي شره، فقالت له بثقة:
- يا أبي إن الله أكبر من هؤلاء المتجبرين في الأرض.

فغمغم أبوها منسحبًا إلى غرفته مُحدثا نفسه: ربنا يستر.. ربنا يستر.

وتتوالى الأيام وتعمل رجاء في مدرسة القرية هي وفاطمة، وكان من بين الزملاء شاب طيب القلب محبوب من التلاميذ ومن المدرسين بل ومن أهل القرية، كان رقيق الحال يعيش وحيدًا بعد وفاة والديه منذ سنوات، لا يملك إلا راتبه الذي يعيش منه إنه الأستاذ عبد العال الذي يُعد من الموظفين الذين يعيشون في القرية لا يملكون أرضًا زراعية ولا بهائم، ولكنْ يُعَدون من الأرياف كان رجلاً جميل المَعْشر، ابتسامته تسبقه دائمًا، وملابسه نظيفة، وشعره أسود لامع، ذو جسم نحيف ولكنَّه قوي صلب.

لاحظت رجاء أنه يتقرب إليها بأسلوب رقيق وباحترام جَمّ، فبادلته نفس الأسلوب بعدما سمعت عنه ما يجعلها ترتاح لمعاملته، ولكن عبد العال لم يجعل الأيام تتوالى عليهما بدون ارتباط؛ خوفًا من القيل والقال حيث مجتمع القرية الذي لا يخفى عليه خافية، فتوجه مباشرة إلى بيت رجاء بعدما أخذ رأيها في الإقتران بها، فوافقت على الفوْر، أولًا: لأنها قد ارتاحت لهذه الشخصية الهادئة، ثانيا: لتقطع على أهل القرية فكرة ارتباطها وتعلقها بسمير الزيان، وثالثا: وهذا الأهم أن تقطع خط الرجعه على مختار الغنيمي وأن يرفعها من رأسه ويتوقف عن مضايقاته لها،

بعدما تكون في كَنَف رجلٍ آخر، فأصَّرت على إتمام الزواج بسرعة وبدون تأخير طالما بيت الزوجية مُعَد حتى ولو ينقصه الكثير، في هذه الأثناء وصل الخبر إلى زبانية جهنم، فاستشاط مختار غيظاً وأخذ يكسر كل مايقابله ويتوعد بأنه سوف يحرقهم جميعًا أحياء.

كان عبد العال يُعِد ويجهز المنزل لاستقبال عروسه وكان يقوم بدهان الغرف بنفسه، وفي ليلة سمع طرقًا على الباب فذهب ليري من الطارق ففُوجِئ بمختار الغنيمي وخلفه الداهية وأمين أسراره شيخ الخفر؛ اندهش عبد العال من هذه الزيارة الليلة الغير متوقعة؛ لإنه لا تربطه بهم أي صلة وخاصة المدعو مختار، فقال لهم في تردد:

- أهلاً وسهلًا.. خيرًا.

فانْبرَى شيخ الخفر قائلًا:

- يا عبد العال أفندي إنَّ العمدة مختار بيه. له معك حديث قصير لصالحك،

ثم دَلف داخل البيت ووراءه مختار، زادت الدهشة على وجه عبد العال، وقال لهم بحزم:

- تفضلوا اجلسوا هنا، ولا حديث قبل أن تأخذوا ضيافتكم دقيقة واحدة أحضر الشاي،

ثم تركهم ودخل إلى المطبخ ليُعِد الشاي ورأسه تدور بأفكاره في كل الاتجاهات، حتى انتهى وعاد يحمل صينية الشاي ووضعها أمامهما وجلس في مواجهتهم

وانتظر أن يبدأ أحدهم الحديث، ثم قال:

خيرًا. ماهي المصلحة التي تربطني بالعمدة؟

قال له المتحدث الرسمي:

- اسمع يا عبد العال أفندي، ما رأيك في إنَّ الخير سوف يَعُم عليك وستكون من أعيان البلد إذا وافقت وتعاونت مع جَناب العمدة.

قال عبد العال وقد بدأ الضَّجر على وجهه:

- يا جماعة الخير، ليتكم تدخلون إلى الموضوع مباشرة، فأنا لستُ في حاجة للأحَاجِي، ماذا تطلبون مني؟.

هُنا أشار مختار إلى شيخ الخفر بيده كي يصمت، ثم تنحنح وركز بصره في عين عبد العال ليُرْهبه، ثم قال بهدوء:

- اسمع يا عبد العال، قد سمعت أنك سوف تُقْدِم على مشروع،

قال عبد العال وهو في اندهاشه:

- أنا رجل أعمل في سلك التعليم، وليس لي في المشاريع إنَّ التدريس هو وظيفتي ووظيفة أبي رحمه الله.
- إنَّه ليس مشروع تجارة، إنَّه مشروع زواج.
- نعم، إنني مُقْدِم على الزواج، وكما ترى أقوم بدهان البيت، أتمنى لك أن تجد الإنسانة التى تُقاسمك حياتك سكت مختار بُرْهة ،وقال في تحدٍ واضح:
- لقد وجدتها، وسوف أتزوجها قريبًا جدًا.
- إذنْ ما هو السبب لتشريفكم الليلة؟

هُنا أشار مختار لخادمه شيخ الخفر بأن يتكلم.

تَنَحْنح ونظر إليه نظرات الثعلب الحكيم، وقال له:

- يا عبد العال أفندي، مارأيك في خمسين فدانًا يُصبحون مِلْكًا لك على الفور، مقابل أن تتنحى عن هذه الزيجة وهذه الفتاة، ونحن على استعداد أن نُزَوّجك أحسن منها، ونتكفل بكل مصاريف العرس.

كانت الصدمة والدهشة قد عَلَت وجه عبد العال حتى بات أنه سوف يُغشى عليه، فأكمل شيخ الخفر كلامه كي يُجْهِز عليه:

- إنَّ الفتاة التى سوف تقترن بها هي مِلْك العمدة، وقد طلبها قبلك وأقسم ألاَّ يتزوجها غيره، أقول لك: اعرف مصلحتك أين واذهب إليها.

نظر عبد العال إلى أكواب الشاي الفارغة أمامهما فقال:

- أرى أنكما قد انتهيتما من ضيافتكما، والله لولا أنكما في بيتي لكان لي معكما شأن آخر.. ثُم قام إلى باب الغرفة وفتحها دون أن ينطق بكلمة، نظر الاثنان إلى بعضهما وقد اكْفَهَّر لون وجهيهما ووقفا حتى وصلا إلى الباب، فمد مختار إصبعه يغرزه في صدر عبد العال مُتوعدًا:
- لقد تنازلت وجئت لحشرة مثلك؛ ظنا مني أنك تمتلك بعض العقل، ولكنْ وجدت الغباء قد تجسَّد في صورة تقف أمامي، سوف أسحقك تحت حذائي هذا، وقد أنذرتك.

ثُم دَلَف خارجًا يتبعه كلبه وكأنه يُخبئ ذيله بين رجليه من الذل، صَفَق عبد العال الباب خلفهما بشدة؛ فسمع غَمْغمَات ووعيد حتى ابتعدا، وجلس يفكر في هذا الفاشل وقد زاد إصراره على اتمام الزواج بسرعة، لم يذكر هذه الحادثة لرجاء ولا لوالديها، فلم يُرِد أن يعكر صفو سعادتهم، ولكنَّه لم يستطع أن يتحمل هذا العبء النفسي في صدره فاختار صديقه محمود كي يفضفض له عما بداخله.

كان محمود صديقًا لسمير الزيان منذ الصغر ويكره مختارالغنيمي منذ نعومة أظْفاره لِمَا كان يُبْديه من جَشع وظلم واستغلال لمنصب أبيه، وكان مختار يبادله الكره والعداء؛ لإنه انضم لأصدقاء بن الزيان فلم يستطع ايذائه أبدًا لالتصاقه بسمير طوال فترة الدراسة، وكلما زادت السنوات في العمر زاد الحقد والبغض في صدره حتى كان اللطمة الأولى عندما تزوج محمود من فاطمة الزيان ليذكره بفشله في الحياة والدراسة، واكتسب محمود الصلابة والثقة من حَمِيه مصطفى الزيان، فوقف هو الآخر في وجه العمدة وجبروته من خلال مركزه كمدير للجمعية الزراعية، فقد أوقف الكثير من المخالفات والنهب التى كانت تتم عن طريق سلفه لصالح العمدة وأراضيه من: صرف للأسمدة، والتقاوي، والمبيدات بدون وجه حق؛ حتى ضجَّ منه العمدة وأخذ يشتكي لابنه عما يفعله ِصهْر مصطفى الزيان، ويتوعده بفصله من المنصب وكان هذا سببا آخر في وضعه في قائمة المغضوب عليهم من آل الزيان، وعندما سمع محمود هذا التهديد الذي تعرَّض له عبد العال، ضحك قائلاً:

- لا عليك يا صديقي، إنه بالون من الهواء الفاسد، وليس له تأثير، فقط عليك أن تتجنبه ولا تُلقِ له بالاً.

قال عبد العال وهو يفكر مَليًّا:

- سأكون له بالمرصاد بالرغْم أنني لا أحب العنف.

قال محمود مشجعًا له:

- إنه جبان لوحده، يتقوَّي بشَراذِمه، فلا تخف منهم، ولا تنس أننا معك، ومَن ِمنَّا يحب العنف، ولكنْ إذا أتى العنف إليك لا تكن كالحَمَل الوديع كن كالذئب أو الأسد الذي يحمي عرينه.
- إن شاء الله.

كان وقوف فاطمة وأبيها وخطيبها محمود بجوار رجاء وعبد العال بالغ الأثر في إتمام الزواج..، دون أن يظهر فيه ما يُعكر صفوه أو يمنعه، أما فرحة رجاء فإنها لا تُوصف لأنها قد وجدت في زوجها ما عوَّضها عن مشاعرها المَوْؤدة تجاه سمير، فعاشرته وشعرت أنها ملكة مُتوجة على عرش قلبه المُفْعم بحبها، وكانت تحكي لفاطمة بأنها قد نبتت لها أجنحة تطير بها على ضِفاف الحُلم..

وكانت القصص تدور في القرية عن خَيْبة ابن الغنيمي وفشله الذَريع في أن يظفر بأي من بنات القرية المعروفات بالثقافة والتعليم، ويقولون أنه يستحق فتاة جاهلة مثله " تأتي من وراء الجاموسة " وكان عناد رجاء ورفضها لمختار الغنيمي هذه المرة أيضًا، وارتباطها بهذا الرجل الذي لا يُضَاهيه حسبًا، أو نسبًا، أو جاهًا، أو مالًا كأنما فتح أَتُون الشر داخله بشراسة وجعل للشيطان مسكنًا في صدره وعقله،.. فأخذ يَسُب ويلعن ويتوعد مزمجرًا كأنه ذئب شرس ينتظر هجومه على فرائسه. بينما كان إبراهيم أبو تهامي يُهدِئ من رَوْعِه ويقول له:

- سوف تتزوجها ولو بعد حين، اصبر يا مختار بك.

ولكن مختار قد زَجَره وقال:

- مالى بها بعدما تزوجت كنت أريد أن أكسر أنفها واجعلها تركع تحت قدمي لتفضيلها ابن الزيان على مختار بيه ابن العمدة، ولكنَّها قد لطمتنى على وجهي مرة أخرى عندما تزوجت هذا الصُّعْلوك الذي ليس له نسب ولا أصل .

فابتسم ابراهيم حتى ظهرت أسنانه الصفراء ،وقد ضاقت عيناه التي تشبه عيني الثعلب ،وقال له وهو يعلم أنه يتلاعب بهذا الأحمق:

- ما رأيك يا مختار بك أن تحرق قلبها، وتقتل فرحتها.

فانتبه مختار لكلامه واعتدل في جلسته، وقال له

- كيف ذلك؟

نفث إبراهيم دخان سيجارته إلى الأعلى وهو يرى تَحَرُق مختار لسماع خطته وهو يستحثه بنظراته النارية، فقال:

- نقتله ونجعلها أرملة في شهور زواجها الأولى.

لمعت عينا مختار للفكرة وتحمَّس لها، ولكنْ خَبَت هذه اللمعة وعاد لطبيعته، وقال له:

- كل أصابع الاتهام ستشير إليّ وكل أهل القرية يعلمون ماحدث، فلنرْجِئ هذا التفكير حاليًا.

قال له إبراهيم وكأنه يُوَسْوِس له:

- لا تخف سيكون لك حُجة غياب قوية ولن يذكرك أحد بشئ، وهم يعلمون أن الجبل مليئ بقُطاع الطرق، لا تخف ودع تدبير ذلك لى، الآن قم معي، سوف نسهر في مكان لا يخطر ببالك.

فقال مختار متسائلًا:

- أي مكان هذا وأنا قد وَطِئْتُ كل شبر من هذه القرية البائسة.

ردَّ عليه التهامي وهو يغمز بعينيه الماكرتين:

- هيَّا معي ولا تسأل، سوف تحب هذا المكان صدقني، هل أنا قلت لك شيئًا ولم يكن كما قلت؟

هز مختار رأسه وقال له:

- أقول لك مثل مايقول أبي لك يالك من داهية.

ضجَّ إبراهيم من الضحك حتى كاد أن يقع على قفاه، ثم قام وتبعه مختار، كان الوقت يُقارب منتصف الليل أخرج إبراهيم تليفونه المحمول واتصل برقم، ثم قال للطرف الآخر: نحن في الطريق، جهز المكان للسهرة، تعجب مختار من هذا الاتصال الغريب ولكنْ شيخ الخفر قال له:

- الصبر يا سعادة البيه.

خُطوات قليلة حتى كانوا على مشارف القرية، فقال له مختار:

- أين سنذهب؟ لا أرى غير بيت هذا المجذوب الذي اسمه عودة.

فقال له مؤكدًا على كلامه:

- صدقْت، سوف تكون سهرتنا عند عودة، توقف مختار عن السير، وقال له مندهشاً:
- ماذا تقول؟!! مال عودة ومال سهراتنا أيها المخبول؟ أتريد أن تفضحنا؟ ضحك إبراهيم قائلاً: قلت لك الصبر يا بك.

وصلا إلى مدخل البيت الخارجي فقابلهما صَبِيُّه بالترحاب والابتسامات:

- مرحبا بالبهوات.

دَلَفَ شيخ الخفر إلى الداخل حتى وصل إلى غرفة الأُنْس كما يطلقون عليها، فوجد عودة يجلس وأمامه قَصْعة عليها الفحم المشتعل مدفون فيها براد الشاي، وبجانب القَصْعة وجد مجموعة من الشيشات ورائحة الحشيش تُعَبِئ المكان، كان عودة يلبس جلبابًا ازرق اللون ولا يلبس عمامته الكبيرة ولا الشال الأخضر الطويل على رأسه الصلعاء، فكان مظهره غريبًا يدعو إلى الضحك، فقال لهم بصوت أجَشّ

- يا مرحبا، أنرتم الصومعة .

جلس مختار بجوار عودة بينما إبراهيم قد افترش الحصير أمامهم بجوار قَصْعة النار يَرص قطع الحشيش المقطع على أحجار الشيشة ، بينما حشاد قد قام بصَبِّ الشاي لهم ومع مرور الشيشة المغموسة بالحشيش عليهم مرارًا وتكرارًا وهم يتكلمون في مواضيع تافهة ، حتى شعر مختار أن رأسه بدأت في الدوران ،وفجأة انخرط في بكاء بصوت عال تعَجَب عودة

من حالته بينما إبراهيم قد عَلَت الابتسامة شفتيه ،وقال له :تمالك نفسك يابك ،لا يوجد امرأة تستاهل بكائك ،ثم غمز لعودة الذي فهم بسرعة المراد ورَبَتَ على كتفيه يُهَدئه وقال له : اطلب ما تتمنى.

لم يفكر مختار بل نظر إلى عودة في تَوَجُس وقلق ،وقال له :

- أريد حضور رجاء الآن حتى ولو هي في حضن زوجها.

قال له عودة بثقة الواثق في أعماله وأفعاله السحرية.

- طلبك مُجاب ياسيد الأحباب انتظر قليلاً.

ثُم بدأ يغمغم بكلمات غير مفهومة ثُم تكلم بصوت واضح وطلب بإحضار رجاء في الحال ، ثم رمي القليل من البخور على الجمر المُتقد أمامهم فزاد الدخان بالغرفة وهو يقول بصوته الأجش :حَيّ

مرت الدقائق ثقيلة على مختار وهو ينظر إلى عودة الذي أصبح يتصبب عرقًا من كل جزء في جسده ،وخاصة صلعته العريضة ثم تنحنح و قال له :

طلبك غير مجاب.

فاستشاط مختار غضبًا ،ومَد يده في جلبابه وأخرج مسدس من جيوبه ووجهه إليه فقال له:

- أيها المخادع أنت محتال كبير ،أهكذا تصبرني؟

فقال له عودة فزعًا :

- إنَّ المطلوبة مُحَصنة بكلمات الله حولها وبغرفتها وببيتها ،فلم يستطيعوا النفاذ إليها أتريد أن أطلب لك واحدة أخرى .

ضحك مختار مُتَهَكِما ،وقال له مهددا إيَّاه :

- كَفي استخفافًا بعقلي ،وإلا أفرغت مسدسي هذا في نافوخك ، أيها الكاذب اللعين ،قفز إبراهيم مسرعًا على يد مختار قبل أنْ يضغط على الزناد وهو في هذه الحالة من غياب العقل ، ولكنَّ عودة نظر إلى إبراهيم مطمئنًا ،وقال له لا تخف لقد تمكنت منه وسيطرت عليه ،وأخذ يتلو تعاويذه فإذا مختار كالطفل الصغير ،قد أخذ يبكي مرة أخرى وهو يضع رأسه على كتف عودة ويقول له :
- أرجوك ساعدني فإننى قد بلغ بي التعب مبلغه.

فهدْهدَه عودة بكفه على ظهره وقال له :

- سيرتاح قلبك بعد بلوغ المُنَى والمراد ،سنخلصك من كل العقبات وسيصبح الطريق أمامك مُمَهدًا وفسيحًا ،امرح فيه كما يحلو لك ولا تنس سيدك عودة ، فإذا بمختار ينام نومًا عميقًا فيطرحه عوده أرضًا ويتركه في نعاسه.

نظر إليه إبراهيم في دهشة ،وقال لعودة :

- كيف فعلتَ ذلك ،إنك لجبار فعلاً.

ضحك عودة وقال له:

- ما موضوع صاحبك؟
- أريد أن أورطه أكثر فأكثر حتى يكون مثل الخاتم في إصبعي هذا، ثُم نتحول إلى والده سلامة بك الغنيمي.

وضحك ضحكة تَخَالها خارجة من فم الشيطان، ثم قال له عودة:

- مَن هذه المرأة؟

- هي لاشيء ولكنَّها قد رفضت الزواج منه، وهذا الشيء هو الذي قد كسر أنفه وأطاح بكرامته وجبروته، ولا يشغله الآن إلا الانتقام لكرامته التي قد تَمَرْغَّت في التراب.

فكَّر عودة قليلًا، وقال له:

- عندي تدبير، ولكنْ ذلك سيكلفكم الكثير.
- لا تكْتَرث بالمال فهو عندهم وفير، والآن دعَك من هذا العَبَث الآن نريد تخطيطًا قويًا؛ أزيل به شوكة في ظهرى وعار قد لُطِّخ به وجهي.

ظهر الجد على وجه عودة وقال له:

- مَن هذا الذي استطاع أن يضايقك لهذه الدرجة، فأنا أعلم أنك واسع الحيلة لا تتوقف عند هزيمة.

قال له إبراهيم وهو يتحسس وجهه وكأن صوت الكف الذي هَوَى على وجهه مازال يَرِن في مسامعه، بل يصل الألم أيضا إلى أذنيه.

- إنه هذا الرجل المُسَمَي مصطفى الزيان، أريد تخطيطًا بشريًا وليس جنياً.
- أعطنى معلومات عنه كاملة ولك عندي تدبير سوف يعجبك، ولكنْ في الغد ولا تنس إنَّ الشغل الآن كثير فلتدعني أنهيه خطوة بخطوة، حتى يأخذ كل موضوع كفايته في التدبير.

ثم فتح كفه وأخذ يحرك أصابعه طالبا المال، فأخرج التهامي من جيبه رُزْمة من الأوراق النقدية ووضعها على كفه، ووعده بالمزيد عند

الانتهاء ونظر إلى مختار الذي كان يغط في نوم عميق، فاشار إليه عودة أن يتركه فتركه إبراهيم وذهب بمفرده والأفكار الشيطانية تتدافع في رأسه، كيف ينتقم من مصطفى الزيان ويثأر لكرامته التى قد مُرغت بوحْل الأرض، حتى وصل إلى بيته.

دخل أول غرفة قابلته من غرف زوجاته الأربع ورمى نفسه على السرير حتى الصباح..

وقف يتأمل التمثال المُعْتلي قاعدة عريضة مرتفعة عن الأرض رُصَّت عليها تماثيل لأربع نسوة يتطلعن إليه بشغف، هذا التمثال الذي كان يُطالعه في كتب النحت المصورة في مكتبة الكلية إنه تمثال " ديفيد أو داوود " للفنان الأشهر في إيطاليا والعالم (مايكل أنجلو). الآن يزور مسقط رأس هذا الفنان العظيم الذي اتخذه مثلاً أعلى في الفن، يقف أمام الحقيقة منبهرًا وكأنه في حُلم جميل، لم يُخرِجْه من انبهاره سوى رنين جهازه المحمول، إنه صديقه (زياد بن رحمه) يبلغه أنه سوف يتأخر عليه نصف ساعة لظرف طارئ قد قابله، لم يجد بداً من أن يتجه إلى المقهى الذي اقترح عليه (بن رحمة) أن يقابله فيه.. كان المقهى من الطِّراز العتيق قديم من قدم المدينة ذاتها، تظهر عليه أثار الزمن يزين جدرانه مستنسخات من أشهر أعمال فناني إيطاليا وعصر النهضة، يطل بكامله على ميدان أنجلو بزجاجه الواسع النظيف ومظلاته المائلة التى تحميه من الأمطار الغزيرة وخاصة في فصل الربيع.

جلس في ركن بعيد خلف الزجاج يستعرض بعينيه المحلات والمارة خارجه، ميدان أنجلو في قلب مدينة فلورنسا أشهر مدن إيطاليا وأعرقها، الميدان واسع تطل عليه المحلات التجارية والمقاهي المكتظة

بالرواد في مثل هذا الوقت من العام، أتت إليه فتاة تبدو من ملبسها أنها نادلة المقهى وبابتسامة ساحرة ألقت إليه التحية وأعطته قائمة المشروبات (المينيو)؛ استعرض أصناف المشروبات ثم أشار إلى القهوة، تناولت منه البطاقة وبنفس الابتسامة قالت له: " جراتسي سنيور". كان مظهره الأنيق وهذه القبعة الصوفية التى يعتمرها وهذه النظارة الطبية واللحية الخفيفة تدل على أنه من هؤلاء الفنانين الذين يجلسون الساعات في التأمل والتمتع بالمشاهدة، نظر في ساعته بقلق ورفع فنجان القهوة إلى فيه يرتشف منه بهدوء، بينما دخان سيجارته تصنع غلالة ضبابية فوقه، نظر إلى خارج الزجاج وبدون إنذارمسبق أظلمت الدنيا وأخذت السماء ترعد وانهمر المطر، يتساقط بغزارة فانفض الناس من الميدان بسرعة واحتموا بمظلات المقاهي وتحت مظلاتهم الصغيرة، دار بصره في أرجاء الميدان الواسع حتى استقر على التمثال مرة أخرى. وكأنه رأى في عينيه عتاب ولوم على الناس الذين تركوه فجاة في هذا الجو الغير مستقر وقطرات المطر الغاضبة التي تضرب وجهه وجسده العاري، كانت الدقائق تمر بطيئة أزاح كُم معطفه بيده اليمنى ونظر في ساعته مرة أخرى، ثم تناول فنجان القهوة وتجرَّع ما بقى منه مرة واحدة، وقبل أن ينزل يده بالفنجان الفارغ دَلَف من باب المقهى مسرعًا شاب في منتصف العقد الرابع هاربًا من هذه السيول المنهمرة خارج المقهى كان الشاب نحيف الجسم، طويل يرتدى قبعة رمادية، اللون ونظارة سوداء تُخفي وجهه، ومعْطَفًا أسود اللون يرفع ياقته لتحمى رقبته، وكُوفِية رمادية اللون تتدلى بأناقة على قميص أبيض وبنطال أسود. توجه مباشرة إلى الجالس في الركن البعيد من المقهى وابتسامته تغطى كامل وجهه، وقف الرجل فاردًا ذراعيه مرحبا به؛ فعانقه بشوق وترحاب وقال له:

- مرحبا (بن رحمة).. لماذا التأخير يا رجل؟
- مرحبا سنيور سامر.
- وضحك الاثنان، فقال له الرجل:
- اسمي سمير يا رجل، سامر للإيطاليين فقط.

ضحك بن رحمة وقال له مازحًا:

- تقصد للإيطاليات فقط ، أنسيت سنيورة (صوفيا) وهي تنادى عليك بصوتها الجميل في وسط الأتيليه. سنيور سااامر.. سنيور سامر؟!

ضحك سمير وقال له:

- يالك من مُخادع، أنسيت أنت أيضًا أنك الذي قد عرفني بها وتركتني بين يديها؟! قلْ ماذا تشرب؟ سوف نتحرك بعد وقوف هطول المطر مباشرة.

حَكَّ (بن رحمة) ذقنه وأشار إلى النادلة التى تقف منتظرة خلف البار، فجاءت مسرعة وقبل أن تعطيه القائمة قال لها: كابتشينو بيرفافوري.

نشأ (بن رحمة) في أسرة تونسية مهاجرة استقرت في نابولي، وكان آنذاك في العاشرة من عمره، كان والده يعمل في الميناء حتى كانت فرصته في الدخول شريكًا مع أحد الإيطاليين في إحدى سفن الصيد، وأصبح مع مرور الوقت صاحب أكبر محلات الأسماك في المدينة ومن الأثرياء بينما (بن رحمة) اتجه لدراسة الفن في معاهد الفن بجامعة بولونيا، حتى عُيّن في المركز الثقافي العربي في روما يختص بتوزيع البعثات الفنية العربية على جامعات إيطاليا، وكان هو أول من

استقبل سمير الزيان، وقد عرَّفه على المَشْغل أو الأتيليه الذي قد درس فيه سمير، وقد كان معرفته لسمير قصة.

نظر إليه سمير وكأنه يستحثه على أن ينتهى من مشروبه بسرعة، ولكن بن رحمه كان من الذكاء ألاَّ يُفَوِّت هذه الفرصة كى يثير حفيظته ويضحك على ردود فعله وانفعاله، فأخذ يشرب ببطء واستمتاع وينظر إليه خِلسة وهو يبتسم، فاستشاط سمير وقال له:

- ألم تنته من هذه الشوربة؟

فضجَّ بن رحمة ضاحكا، وقال له:

- الصبر يا صديقى أعلم أنك في عجلة من أمرك وأنك في شوق عارم لمشاهدة معالم المدينة ولكن الجو كما ترى مازال غاضبا، هل أطلب لك كابتشينو...؟ وأكمل ضحكته ولكنه سكت فجأة ونظر إلى سمير نظرة كلها احترام وجدية؛ فتعجب سمير من تلك النظرة وقال له:
- هيه أيها الرجل، أين وصلت؟

قال له بن رحمة:

- سبحان الله، كلما أتذكر معرفتي بك أول مرة وأتذكر ماذا فعلت من أجلي عاجله سمير بقوله ضاحكا:
- ماذا بك يا أخي.. أنا لم أفعل شيئا، إنها مجرد رصاصة استقرت في كتفى تحملتها عنك.

فقال له بن رحمة:

- لقد أنقذت حياتي يا رجل، لولا كتفك الكريم لكنت تجلس لوحدك الآن تحتسي قهوتك بدوني، دائمًا أفكر كيف قمت بإنقاذي من بَراثِن عصابة من المافيا كانت تود أن تقتلنى؛ انتقامًا من أبي الذي رفض أن يدفع لهم إتاوة شهرية.

فقال له سمير:

- عندما شاهدت الرجل يُصَوِّب مسدسه باتجاهك لم أفكر بشيء إلا أن أقفز عليك وأطرحك أرضا حتى تتفادى الرصاصة، ولكنْ الرصاصة احتلت كتفي أنا.

ومنذ تلك اللحظة ونحن أصدقاء.

قال له بن رحمة مقاطعًا..

- بل أخوة يا رجل، أنسيت دمي الذي يجري بعروقك، قال سمير فعلاً يا بن رحمة، ففصيلة دمائنا وعروبتنا وإسلامنا واحد يا رجل.
- لو كان مكاننا اثنين من الإيطاليين في هذا الموقف ما تحرَّك الأول قيد أنْمُله لينقذ الآخر، وهذا ما أثار إعجاب كل مَن سمع بقصتنا بك وبمروءتك، وقد جعل أبي يسأل عن أحوالك دائماً ويطلب منى أن أكون في خدمتك في أي شئ بالرغم أنني لا انتظر كلامه حتى أقوم بذلك.

نظر إليه سمير مطولًا.

- إنك يا أخي إنسان محترم وقد قمتَ بالكثير من أجلى كما أنني أحب والدك كوالدي تماما.

رفع بن رحمة يده بفنجانه كي يرتشف قليلاً من الكابتشينو وحانت منه التفاتة، ثم شهق وقال:

- يا لها من مصادفة غريبة!

لاحظ سمير مدى الجدية والاهتمام الذي ارتسم على وجه بن رحمة ونظر في الاتجاه الذي ينظر إليه، وزادت دهشته وقال له:

- مابك يارجل، أراك قد تغيرت فجأة:

فنظر إليه بن رحمة باهتمام وقال له:

- اسمح لى بدقيقة.

وقام قبل أن ينطق سمير بحرف واتجه إلى طاولة في آخر المقهي قد جلس عليها مجموعة من الرجال والسيدات الإيطاليات، فألقى عليهم التحية فوقف رجل منهم وعانق بن رحمة وتكلم معه بحميمية ظاهرة، وتعجب سميرعندما أشار بيديه تجاهه فهز الرجل برأسه مُحييا سمير، فرد عليه سمير التحية وهو لا يفقه شيئًا ورجع بن رحمة وابتسامة تعلو وجهه، وقال له:

- يالك من محظوظ.

فنظر إليه سمير بدهشة وهو لا يدرى ماذا يقول، فاستطرد بن رحمة كلامه:

- هذا الرجل الذي كنت معه الآن من كبار الشخصيات الفنية التي تعمل في مجال السينما وخاصة في مجال الخدع السينمائية، إنه (كالوتشيمانزيني).

زادت دهشة سمير وقال له:

- مالي أنا ومال السينما، أنا رجل فنان أعمل في مجال النحت.

فقال له بن رحمة:

- الصبر يارجل، بل هذا التخصص من صميم عملك، فأنت تعلم أن كل الشخصيات الخرافية والحيوانات والديناصورات جميعها قد صنعت من مجسمات طينية، ووُضِعت أمام كاميرات خاصة إذًا فمَن يصنعها غير فنان مثلك؟

أدرك سمير ما يرمى إليه بن رحمة وقال له:

- أه الآن قد فهمت، ولكن ياصديقى أنا لم أضع هذا نُصْب عيني، لقد جئت هنا لأحصل على درجة الدكتوراة في تخصصي فقط.

تأفف بن رحمة وقال له:

- يالك من إنسان غير طموح، إنَّ هذا العمل سوف يساعدك في رسالتك لو فهمت مقصدي يا رجل، إنَّ هذا الرجل يمتلك أكبر المعامل الفنية في هذا المجال وهناك من الفنانين المُخَضْرمين في هذا النوع من الفن، وسوف تتعلم تدريجيًا أسرار هذا العالم الرهيب وقد تنسى حتى رسالة الدكتوراه تلك.

أطرق سمير بُرْهة إلى الطاولة مفكرًا، وقال له:

- أنا موافق.

فقام بن رحمة على الفور وكأنه يَزِفُّ البشرى لهذا الرجل وعاد ومعه موعد اللقاء وعنوان المكان، قال له سمير:

- ماهى خطتك لهذا اليوم؟ أين الوجهة التى سنزورها في هذه المدينة؟

قال له بن رحمة كأنه يختبر معلوماته التاريخية والفنية:

- ماذا تعرف عن فلورنسا يا فنان.؟

أطرق سمير للحظات كأنه يستجمع معلوماته ورأى شبه ابتسامة على شفتي بن رحمة، فقال له سمير:

- الذي لا تعرفه يا رجل أنَّ هذه المدينة كانت عاصمة إيطاليا قديمًا.

فَغَرَ بن رحمة فاه وقال له:

- ماذا تقول.؟!!

قال سمير مكملاً كلامه بهدوء وكأنه تذكَّر محاضراته لطلابه في الكلية:

- نعم، فقد كانت هذه المدينة مهد للثقافة والفنون والتاريخ والتجارة، أيام حكم اسرة (مديتشي)، وكانت فلورنسا مهد عصر النهضة وهذه الفنون العريقة التى بقت شاهدة على هذه

العصور الرائعة، في هذه اللحظة كان بن رحمة مثل أى طالب يستمع باهتمام كأنه يستزيده، فأرْدَف سمير بقوله: اشتهرت فلورنسا بأنها من أجمل المدن المشهورة بالفن وبالعمارة والمباني التاريخية العديدة فكان يطلق عليها اسم (أثينا العصور الوسطى).

فابتسم بن رحمة وقال له مازحًا:

- هل زرت المدينة من قبل دون علمى.

فقهقه سمير وقال له..

- يا عزيزي، هذه دراسة تاريخ الفن في كلية الفنون، فنحن ندرس فنون ما قبل الأُسْرات الفرعونية حتى فنون العصر الحديث مارًا بكل العصور بينهما، فهذا شيء أساسي في تعلم الفنون، ناهيك عن أنَّ هذه المدينة كانت ملتقى أشهر الفنانين الذين نعرفهم ووصلت لنا أعمالهم مثل: ليوناردو دافنشي، ومايكل أنجلو، وغيرهم من فناني إيطاليا..

هز بن رحمه رأسه معجبًا بكلام صديقه، ثم نظر إلى الشارع عبر زجاج المقهى كان المطر قد توقف وانْقَشَعت الغيوم وعاد الجو صَحْوًا ودافئًا..، فقام سمير مع صديقه بعدما ترك الحساب للنادلة ومعها بقشيشًا سخيًا، فودعتهم مُمتنة حتى خرجا من باب المقهى تعجب سمير من نظافة الشوارع والبنايات التى تحيط الميدان وتساءل:

- أين ذهبت كل هذا المياة؟ وكأن المطر لم يسقط قط.

فقال له بن رحمة:

- هذه البلدان غير بلادنا ياصديقى.. فهُنا التخطيط يبدأ قبل كل شيء، فهناك مدينة بنيت تحت هذه المدينة بها شوارع، ومتفرقات، ومخارج، وإضاءة، وكلها مخصصة لخطوط المياه والكهرباء والتليفونات، ومياه الأمطار والمجاري، حيث تتجمع كل منها في خزانات ويُستفاد منها مرة أخرى في الزراعة أو مياه الشرب.

تذكَّر سمير القاهرة وشوارعها القديمة عندما كانت تسقط الأمطار؛ فيصيب الشلل بعض الشوارع تمامًا، وأيضًا قريته التى تصبح في يوم وليلة بركة من الطين الرائب اللزلج، وبالرغم من هذه المتناقضات خرجت منه زَفْرة حنين إلى موطنة. قطع تفكير سمير سؤال مفاجئ من بن رحمة جعله يتوقف عن السير:

- كيف حال صوفيا. هل هى على اتصال بك؟

نظر إليه سمير وقد ظهرت على ملامحة الجِدية والعبوس.. وقال له..

- فكرت كثيرًا أنْ أغامر وأذهب إلى الشمال حيث مكان إقامتها وأطلبها للزواج وليكن ما يكون.

فعاجله بن رحمة قائلاً:

- على رسْلك يا رجل، أتريد أن تكون شهيدًا من أجل الحب؟! وبرغم موتك لن تحصل على شيء ولن يقيموا لك التماثيل اهدأ يا فنان، أنا أعلم أن كل الفنانين مجانين.

قال له سميربصوت يملؤه الشجن:

- بل قل صادقين حتى ولو كان صدقهم هذا للحظات، فهو يعيش كامل صدقه في لحظة، لقد قضيتُ معها أجمل لحظات الصدق في حياتي..
- أرى أنه كان حبًا جارفًا.. أين وصل يا ترى..؟

فوكزه سمير بمِرْفَقه، وقال له ضاحكا:

- يا لك من شيطان، لن أريحك بإجابة، ولكن كل ما أفكر فيه أنني سوف أذهب إلى أهلها، أنا لا استطيع العيش من دونها، قد سافرتْ منذ أسبوعين ولم أسمع عنها أي خبر إلا رسالة مقتضبة تقول فيها: سافرت لأمر هام.. أحبك.

انتفض بن رحمة وأدرك أن كلماته قد ذهبت سُدى في أدراج الرياح، فنظر إليه قائلا:

- أرى أنك سوف تفتح علينا بابًا للجحيم لن نقدر عليه.
- لماذا تتكلم بصيغة المثنى؟.. أنت ليس لك دخل بالموضوع.
- كيف؟ ألستُ صديقك؟ سأذهب معك وليكن ما يكون.

في الصباح كان الاثنان على مِتن القطار المتجه إلى الشمال حتى وصلوا إلى المحطة التي تطل على مشارف القرية، قام سمير بسؤال موظف المحطة عن القرية التي تسكن فيها حبيبته واسم العائلة، وبمجرد أن سمع الموظف اسم العائلة حتى ظهر الارتباك على وجهه وقال: لهم لا أدري ثم قام منصرفًا ودخل غرفة أخرى، تعجب الصديقان من هذه المعاملة الجافة، فانصرفا من المحطة فقابلوا امرأة تحمل على يديها

سلة بها بعض الفواكة فسألوها عن القرية والعائلة وبمجرد أن سمعت هي الأخرى اسم العائلة فحدث ما حدث مع الموظف، فتركتهم مُهَرْوِلة ودلَفَت في طريق صغير جانبي، ولم تعبأ بحبات البرتقال التي تساقطت منها، ولم تنظر إليها حتى ولكن كانت تلتفت كل بُرْهة إلى هذين السيدين الغريبين الذيْن يسألان عن الجحيم.. وفجأة ظهر لهما رجل يلبس ملابس القرويين ويحمل بندقية في يده وقد صَوَّبها إليهما، وقال لهما:

- مَن أنتم.؟ ولماذا تسألان عن العائلة؟

فرفع بن رحمة يديه وقال له وهو مضطرب:

- على رسْلك يا رجل، نحن لم نأت في شر، نحن أصدقاء الفنانة صوفيا من الأتيليه.

هُنا هدأت نبرة الرجل وأرْخَي يديه بالبندقية وقال لهم:

- معذرة.. لم يأت غرباء إلى قريتنا إلا لشر، فنحن دائمًا في قتال.

ثم مَدَّ يده ليصافحهما، وتعجب مِنْ أنَّ الشاب الآخر لم يظهر عليه أثار الهَلَع مثل صديقه، بل وجد قبضته قوية أثناء المصافحة، ثم قادهما مشيًا في اتجاه القرية. و أرْدَف قائلا:

- أنا نسيبها. هل وصلتكم دعوة العُرس؟

هُنَا انْبَرى سمير بالكلام:

- عُرْس من؟

فنظر إليهما الرجل وقد عاد إليه الشك مرة أخرى وقال:

- ألم تخبركما صوفيا؟ لقد تزوجت أخي جوليانو.

شعر سمير أن الأرض تَمِيد به وأنه سوف يقع مَغْشيًا عليه، ولكن بن رحمة كان أسرع منه فأسنده وضغط على يده حتى لا ينطق بكلمة، ثم استطرد:

- نعم أخبرتنا ونحن قد أتينا لتهنئتكم، ولكن صديقي مصاب بداء النسيان.

لم يعلق الرجل وكأنَّ الكلام لا يعنيه لاحت معالم القرية والبيوت البيضاء التى تتلحف برداء أخضر متنوع الدرجات، ثمُ دَلَف إلى مدخل البيت الكبير وأدخلهما غرفة واسعة ذات أثاث بسيط ولكن تظهر لمسات صوفيا فيه وانصرف، وبعد دقائق شعر سمير بطيف صوفيا قادم من بعيد، كان الغضب قد أخذ منه مبلغًا وأوشك على الإنفجار.. أطلَّت صوفيا بوجه شاحب وكأنها رأت أشباحًا، ثم قالت لهما بغضب:

- ماذا أتى بكما؟ هل أنتما مجنونان..؟ ألا تعلمون ماذا سيحدث إذا عرف أحد من أنتما؟

رد بن رحمة وقد صدمه هذا الكلام المفاجئ:

- نحن أصدقاؤك وزملاؤك يا صوفيا، وسمير.

قاطعته صوفيا. لا تذكر اسمه يا غبي، ثمُ خرجت مسرعة تتفقد الساحة الخارجية

فسمع سمير جَلَبة في الخارج وصوت رجل كأنه يتشاجر مع صوفيا، عرف سمير أنه جوليانو عندما نطقت اسمه، في هذه اللحظة دخلت

صوفيا ممسكة ذارع جوليانو الذي أتى ليُسلم على الرجلين، فنظر إلى سمير بنظرة وكأنه يتوعده، فقال بن رحمة: لقد أتينا اليوم لنهنئكما على الزواج، نحن أصدقاء صوفيا في الأتيليه..

فقال جوليانو وهو مازال ينظر إلى سمير: سوف تقضون معنا بعض الوقت تستمتعون فيه بجمال ريف الشمال، وتركبون فيه الخيول،

تفضلوا، ثم أمر صوفيا باحضار الشراب والفاكهة للضيوف،

لم تمر دقائق ثم دخل عليهما أخو جوليانو مسرعًا وتعلو وجهه علامة الارتباك ومال على أذن أخيه، وأسرَّ له بكلمات، ثم انصرف.

وقف جوليانو ومد يديه إلى حزامه العريض الذي يُخفي في جانبيه مسدسين ضخمين وكأنه يطمئن عليهما، ثُم أنزل صندوقًا خشبيًا، وفتحه وأخرج بندقية كبيرة تشبه بندقية أخيه، كان بن رحمة يتابع هذه التصرفات وقد راح لون وجهه واحتل اللون الأصفر مكانه، وارتعدت فرائصه ولكن طمأنته كلمات جوليانو عندما نطق: اعتذر عن الضيافة، أنتم في بيتكم يجب أن أذهب لأمر مهم، هنا تنفس بن رحمة الصعداء ونظر إلى سمير الذي كان في العالم الآخر من هَوْل الصدمة، وكأن شيئا من الذي حدث لم يحدث أو أن أذنه قد أصابها الصَّمم، بعد قليل دخلت صوفيا مُهَرْوِلة، وقالت لهما وهي تمسك ذراعيهما ليتحركا.

- يجب أن تذهبا الآن، إن المكان خطر عليكما.

لم تكمل صوفيا كلامها حتى سمعوا صوت طلقات رصاص كثيف..

فأكملت صوفيا كلامها وهي ترتجف:

- سأدلكما على طريق آخر تصلون منه إلى المحطة، سوف أحكي لكم بسرعة ما حدث بالتفصيل، ولكن اذهبا الآن أرجوكما..

كانت نظرات صوفيا لسمير كلها رعب وخوف عليه، ثُم قادتهما إلى الطريق الآخر المُغَطي بالقِرْمِيد والأشجار الكثيفة، وقالت موجهة كلامها لسمير الذي كان يمشي صامتا لا ينطق بِبِنَت شَفَة، وقد على وجهه الحزن الشديد:

- لقد سافرت إلى أهلى بعدما اتصلوا بي يخبرونني بأن أبي على فراش المرض في حالته المتأخرة وقد تركت لك رسالة لانك لم تكن موجودًا تلك الليلة، فذهبت مسرعة كي أفاتحه في موضوع زواجنا لعل قلبه يَحِنُّ ويوافق وهو في الرَمَق الأخير، ولكن عندما وصلت كانوا قد جهزوا كل شئ للعُرْس ظنًا منهم أنهم يعملون لي مفاجأة سارة؛ لأنني دائمًا ما أتعلل بانشغالي ودراستي، ووجدتُ أبي يقول لى إن زواجك على ابن عمك هذا الإسبوع، فحاولت التَمَلُص، ولكن هَيْهَات، فحكيُت لأمي عنك فإذا بها تلطمنى على وجههي وتقول لي: ستكونين سببًا في تفرق العائلة وانتشار العداء بينهم، ولو علموا أو شكوا مجرد الشك بأنَّ هناك رجل آخر سيذبحوه كما تُذبَح الدجاج، وأنتِ تعلمين أنهم لا يتورعون عن شئ، وخاصة جوليانو فهو كثير الشك والريبة في كل من حوله فوافقت حفاظًا على حياتك، ويعلم الله انه ليس هناك في قلبي غيرك أرجوك أن تختفي ولا تظهر الآن، وداعًا يا حبيبي، ثم مالت على جبهته وقبَّلته قُبلة سريعة.. ودَلَفت عائدة بعدما أوصت بن رحمة بالاهتمام بسمير ورعايته

ازدادت فرحة عائشة عندما سمعت صوت وحيدها وفلذة كبدها عبر أسلاك الهاتف أيْمَا فرحة، أراد سمير أن يحكي لها ما حدث مع حبيبته وكيف أنَّ الانفصال جاء سريعًا، أراد أنْ يبثها همومه ويَلْقَى منها ما يريح قلبه ويُهَدِئ حاله، ولكن عندما شعر بالسعادة في نبرات صوتها تراجع في أن يحكى شيئًا بينما صوت فاطمة تُشاكِس أمها؛ لتأخذ منها سماعة الهاتف لتَزفَّ إليه بُشْرى زواجها من محمود حيث حدد موعدًا للزفاف مع والدها بعدما تزوَّجت رجاء الطوخى بشهر، وقالت له ليتك كنت بجانبي يا أخي الحبيب، ولكن مستقبلك عندنا أهم من كل شيء والبركة في والدنا العزيز، هنَّأ سمير أخته وأظهر فرحًا في نبرات صوته وقال لها إنَّ هدية عُرْسكم سوف أحضرها معي عندما انتهي من دراستى هنا، أبلغي سلامي لصديقي الخلوق محمود وتهنئتي الحارة لزواجكما، وسلامي لوالدي العزيز كنتُ أحب سماع صوته وأبارك له، فقالت فاطمة: إنَّ والدك قد سافر إلى القاهرة لبعض الأشغال عندما يحضر بالسلامة سوف أبلغه بذلك، ثم أعطت الهاتف لوالدتها التى لم يخف عليها ما ظهر في صوت ابنها من ضيق وشجن، فقالت له: مالك يا حبيبي أشعر بصوتك شيئًا ما.. هل أنت بخير؟ صمت سمير قليلاً وتدارك الموقف فهو لا يريد أنْ يفسد فرحتها ولا سعادتها بابنتها، فليتحمل هو ما يَعْتَمل بصدره لعل الأيام تعالج جروحه، قال سمير: خيرًا يا أمي، أنا بخير ولكنْ كنت أتمنى أن أكون بجوار أختى وأحضر فرحها، ولكن الشروط هنا صعبة للغاية، فقالت أمه كى تخفف عنه: حبيبي ولا يهمك البركة في والدك ويكفي فرحتنا الكبرى عندما تأتي إلينا حاملاً الدكتوراة من إيطاليا، هذا هو الفرح الكبير، لا تشغل بالك وانتبه لدراستك، لاحظ سمير في كلام أمه أنها لم تأت على ذكر صوفيا

من قريب أو بعيد، وكأنها لا تريد أن تتحدث عنها، أو أنها تشعر بحاله فلا تريد أن تزيد أوجاعه فارتاحت نفسه قليلا.

كانت فاطمة قد أخذت من أخيها صفاته الكثيرة من الذكاء، ورجَاحَة العقل، وتحمل المسؤولية، ناهيك عن جمالها الهادئ وتفاصيل وجهها التي تشبه كثيرًا جمال أمها.

كانت صفاتها تلك قد جعلتْ محمودًا يتعلق بها منذ الصغر حيث كان صديقًا لأخيها وزميلاً له في الدراسة، ولكن محمود قد اختار كلية الزراعة لحبه لهذا المجال الذي هو من صميم حياته الريفية؛ ولذا قد تخرَّج منذ سنوات ونظرًا لتقديراته المرتفعة فقد تم تعيينه في الجمعية الزراعية مديرًا لها بدلًا من المدير السابق الذي خرج إلى المعاش، وقد فرح به أهل القرية كثيرًا، ماعدا هذه الفئة الحاقدة التي تحقد على كل ما يمت بصلة لعائلة الزيان.

كان عُرْس فاطمة عُرْسًا عاديًا خال من البذخ والترف الشديد بالرغم من مكانة الحاج مصطفى في المنطقة كلها، وكان مشابهًا لحد كبير لعرس رجاء الطوخي ولكنْ الذي كان يُفَرِق بينهما هو: الحَشْد الكبير من البشر المهنئين والذين حضروا ليكونوا بجوار شخصيتهم المحبوبة وراعيهم، الذي لم يتوان أبدا في الوقوف بجوارهم في أفراحهم وأتراحهم. وكان من بين الحضور عمدة القرية وحاشيته، فكانوا ينظرون للعُرْس المُقام بأنه لا يرقى إلى مستوى تواجدهم ويأخذون على الحاج مصطفى هذا التقشف في فرح ابنته الوحيدة، فجلسوا قليلاً ثم انسحبوا وهم يتندرون ساخرين، ولكن كان لأهل القرية رأي آخر فقد وجدوا في الحاج مصطفى التواضع وعدم الغرور وإظهار الغِنى الفاحش عليهم

وجعلهم يشعرون بفقرهم، وعندما علموا أن هذه المظاهر المتواضعة كانت تحت طلب وإصرار من السيدة الصغيرة بنت أمها الكريمة فاطمة الزيان، فقد أصرت أن يكون عُرْسها مثل عُرْس أي بنت من بنات القرية وخاصة صديقتها الحميمة رجاء الطوخي؛ فزاد قدْرها في قلوبهم وتمنوا لها أصدق الامنيات، وانتقلت فاطمة إلى بيت زوجها المتواضع ولكن كانت السعادة تكتنف هذا البيت الصغير فتجعله قصرًا، وأصبحت فاطمة ورجاء زوجتين لشابين من أطيب شباب القرية وأحسنهم خلقًا.

استيقظ أهالى القرية ذات يوم فزعين على صراخ بهلول وهو يُهَرْوِل بقدمه العرجاء، ويدق أبواب دور القرية بعصبية كلماته المُبْهمة السريعة لا تفسر ماذا حدث.

حتى استوقفه بعضهم وأخذوا يُهَدِئون من رَوْعِه وهو ينتفض انتفاضه كبيرة وعيناه جاحظتان وكأنه رأى بهما وحشًا أو عفريتًا، وهو يشير بيده ناحية الشرق ثم وقع على الأرض لا يَقْوَى على الوقوف من هَوْل ما رأى، اجتمع الناس حوله وهو مازال رافعًا إصبعه السبابة ناحية الشرق ويُغَمْغِم بكلمات لم يفهمها أحد؛ فأتوا له بحمار وحملوه عليه وساروا به في الإتجاه الذي مازال رافعًا يده نحوه، حتي وصلوا إلى أطراف البلده ونزل بهلول بعدما استرد وعيه، وتقدمهم يحث الخُطى بعرجته بين الحقول والجميع يجرى خلفه حتى وصلوا إلى أحد المصارف الزراعية، فوجدوا رجلاً منكبًا على وجهه على غطاء الصرف الزراعي الخرساني والدماء حوله تغطي المكان، فزع الناس وهلعوا من هذا المنظر، ولكن مَن هذا الرجل؟ وماذا كان يفعل في هذا الصباح الباكر وفي هذا المكان؟ وهل هو قتيل أم مُغْمى عليه فقط؟. فتجرأ بعض الأشخاص وتقدم إليه بحذر وقلبوه على ظهره كي يتبينوا ملامحه.

فتراجعوا فورًا بمجرد رؤيته وتعالت صيحاتهم وهَمْهَماتهم عندما شاهدوه: " لا حول ولا قوة إلا بالله. " إنه عبد العال أفندي المُعَلِّم زوْج الأستاذة رجاء الطوخي؟.. كانت الحيرة قد عقدت ألسنة الحاضرين، ماذا يفعلون؟

فاقترح أحدهم أن يحملوه إلى داره ويأتون له بطبيب لعله مازال حيًا، ولكن صاح أحدهم ينبههم بأنها قد تكون جريمة قتل ولا يجب تحريك الجثة حتى يُبلّغوا العمدة وهو يرى ما يجب فعله. فبدأ الناس بالتساؤل وهم لا يعلمون لأسئلتهم جوابًا. لماذا يُقتل هذا الرجل الطيب الذي قدَّم وزوجته الخير الكثير لأهل القرية وتتلمذ على أيديهما شبابها وبناتها..؟ إنه أستاذ ورجل علم وفي حاله، انطلق البعض منهم إلى دوار العمدة الذي ما أن سمع الخبر قال لهم " يا فتاح يا عليم " مصيبة على الصبح، ما هذه القرية التعسة وأرسل خفيرًا إلى بيت إبراهيم التهامي ليوقظه ويرسله إلى مكان الحادث، وذهب هو يحيط به الخفراء بسحنتهم المتصلبة الخالية من أى تعبير حتى وصلوا إلى الجَمْع المتجمهر، بينما صوْت زوجته قد شقَّ عَنَان السماء في صراخ ونحيب وهي توجه نظرها إلى العمدة وحاشيته وبعض النسوة يمسكن بها لتهدئتها، فتقدَّم إبراهيم التهامي ونظر إلى رجاء وكأنه يعزيها ورسم على وجهه الحزن ثم انحنى على الجثة بكل ثقة وأخذ يُقلب فيها بطريقة العالم للأمور، وكأنه طبيب شرعي ثم وقف والعبوس يرسم على وجهه وقال للجَمْع المتجمهر حوله:

- إنَّ الوفاة جاءت نتيجة سقوط المرحوم على حرف غطاء المصرف الخرسانى وقد أُغْمى عليه ونزف حتى الموت، ليس هناك جريمة يا جماعة فهذا قضاء وقدر، فالرجل معروف بحُسن أخلاقة وطيبته وسيرته الحسنة و ليس له أعداء في القرية أو القرى المجاورة.

فقال أحد الفلاحين الذين يظهر عليه بعضًا من الثقافة والفهم.

- إذنْ ماذا أتى به داخل حقل الذرة؟ هذا أولا، وهو لا يعمل بالفلاحة وليس له أي أرض زراعية، ثانيا: لو سقط على غطاء المصرف على وجهه كما وجدناه فهل يخرج الدم من الخلف أم من أمام الرأس. يا جماعة الخير هذه جريمة قتل واضحة.

صمت الجميع ينتظرون رد كبير قريتهم، فنظر إليه إبراهيم التهامي شذَرًا، وقال له:

- أتحسب نفسك مأمورًا أم وكيل نيابة.. أم أنك تفهم أكثر من شيخ الخفر؟ الزم أدبك في حضرة سلامة بك، واجعل رأيك لنفسك ولا تفتح على نفسك مالا تطيق

نظر الرجل إلى الارض وانسحب صامتًا حتى اختفى وسط الجموع، فتقدَّم العمدة وأخرج تليفونه المحمول وبدأ يتكلم بصوت مرتفع بينما الجموع في صمت تام، كان حواره مع ابنه مختار الذي يقضي عِدة أيام في الاسكندرية، وأبلغه ما حدث وكأنه يريد أنْ ينفي التهمة عن ولده أمام الجميع وأن يكون هناك حُجَة لغيابه عن القرية والحادث، ثم وجه أوامره للخفراء أن يحملوا الجثة ويذهبوا به إلى داره ويقوموا بتغسيله حتى يستطيعوا أن يصلوا عليه صلا ة الظهر، وقبل أن يحملوه قال لهم العمدة موجهًا حديثه للجميع وهو يعلم إجابة سؤاله مقدمًا:

- أرض مَن هذه؟

وقبل أن يجيب أحد من الواقفين حوله أرَدَف بالاجابة:

- أليست أرض الحاج مصطفى الزيان؟

فرد إبراهيم التهامي مؤكدًا:

- نعم يا حضرة العمدة.

حكَّ العمدة ذقنه ونظر إلى شيخ الخفر بنظرات ذات مَغْزى، وقال:

- ولكن أين الحاج مصطفى؟.. ألم يسمع بالذي حدث؟.

تطوَّع أحد الفلاحين بالرد على العمدة، وقال له:

- الحاج مصطفى في مصر يا جناب العمدة.

فقال العمدة بنبرة فيها من الشك والاتهام المُبهم:

- في مصر.؟ طيب.. يصل بالسلامة....

كان الوجوم مسيطرًا على الجميع فلم ينبس أى منهم ببِنْت شَفَة، وكيف لا وهم في حضرة كبير البلد عمدتهم سلامة الغنيمى وشيخ الخفر إبراهيم التهامي. تقدم اثنان من الفلاحين ورفعا الجثة ومشيا بها حتى أوصلوها إلى بيته، بينما رجاء تسير خلفهم وهي تستند على صديقة عمرها التى هرولت إليها بمجرد سماعها الخبر المشئوم وهي تُوَلْوِل وتقول:

رَبِّي على الظالم والمفتري لقد قتلوك يا حبيبي قتلوك ويمشون في جنازتك، ومع اقتراب صلاة الظهر كان كل شئ جاهز فتم تغسيل الجثة وتكفينها، وجاء طبيب الوحدة وأقرَّ بالدفن فحملوها إلى مسجد القرية وقاموا بالصلاة عليها. كل ذلك تم بهدوء ونظام غريب وكأنه قد تم عمل

بروفة مسبقة لهذه الواقعة، وتم استخراج شهادة الوفاة بكل سهولة من طبيب الوحدة الصحية بالقرية.

كان أهل القرية لا يستطيعون التصديق على هذه الرواية وهم يعلمون جيدًا مَن يكون وراء مقتل هذا الأستاذ المسكين، ولكن هل يجرؤ أحد أن يتكلم أو حتى يحاول أن يشير بصمت للجاني الفعلي.؟!.. هكذا الحال في القرية عندما يكون الخوف هو سيدهم و العمدة هو الآمر الناهي والمتحكم في كل نواحي الحياة، عندما يقول عن الليل نهار أو، الأبيض أسود، أو الحلال حرام، أو الحرام حلال فيجب التصديق على ذلك، وإلا تكون من الخارجين عليه وعلى حكمه وحكمته فلن تحصد إلا ندمًا. وقد تكون آخر ما تنطق به ويبقى الفاعل دائمًا وأبدًا معلومًا مجهولًا، كانت السيطرة على مقاليد الحكم كالقبضة الحديدية، لا يجرؤ أحد أن يقترب منها أو يجرب تأثيرها إلا واحدا فقط كان كالصَّنْدِيد العَتيد، والمعارض لحكم الغنيمي وبطانة السوء التى حوله، هو مصطفى الزيان وابنه الشاب العلامة فخر القرية وفتاهم العزيز الذي ينحدر من سلالة عريقة لا يشوبها شائبة.

أنهى الحاج مصطفى أشغاله بسرعة وعاد إلى القرية بعدما سمع خبر وفاة الأستاذ عبد العال، ولكنه لم يلحق الجنازة فذهب إلى بيت الطوخي ومكث معه حتى انتهى العزاء، وعندما رجع إلى البيت كاد رأسه ينفجر من كثرة التفكير، وأصبحت التساؤلات تنهال على عقله: لماذا كان العمدة حريصا على دفن الجثة بسرعة؟... ولماذا كان الأستاذ عبد العال في أرضي أنا؟ وأين كان هو في هذه الساعة؟.. وكيف أقرَّ طبيب الوحدة أن الوفاة قضاء وقدرًا نتيجة لاختلال توازنه وسقوطه على جدار المصرف؟... شعر بشئ من الضيق والحزن، وأن أنفاسه تخرج وتدخل بصعوبة وألم حاد في صدره؛ فانتفض من على السرير وأخذ يسعل بشده لينشط عضلة القلب، هكذا قد تعلم عندما يتعرض لهذه الحالة حتى شعر باستقرار تنفسه وأن الهواء البارد أخذ يملأ رئتيه من جديد، في الصباح ذهب إلى الوحدة الصحية لمقابلة الطبيب الذي بدا عليه التهرب من ملاقاته، ولكن مصطفى أصرّ على الحديث معه، فانتظره حتى سَنَحت الفرصة ودخل عليه، بُهِت الطبيب عندما وجد الحاج مصطفى أمامه ولم يستطع فعل شيء إلا أن يقول له:

- تفضل ياحاج بماذا تشكو؟

نظر إليه الحاج مصطفى وقال له:

- أشكو من موت الضمير يا دكتور.

فهم الطبيب سريعًا ما وراء كلمته ولكنه أظهر غباءه وعدم فهمه، فقال له مصطفى:

- يا دكتور كلنا سوف نقف أمام قاضي القضاه ليحكم بيننا بالعدل، هل أعددت لموقفك؟...

نظر إليه الطبيب مُتَأفِفا وقال له:

- ياحـاج مصـطفى إن معـي شـغل كثيـر والمرضـى بالخـارج ينتظرون الكشف، وأنا لم أقترف ذنبًا إذا كنت تقصد وفاة الأستاذ عبد العال فهي وفاة قضاء وقدرًا وليس بفعل فاعل، وقد كتبت تقريري بهذا وصرحت بدفن الجثة، وليس عندي شيئًا آخر أقوله استأذنك ياحاج.

ثم تركه وانصرف بينما الحاج مصطفى خرج وهو يقول:

- حسبي الله ونعم الوكيل..

مضى أسبوعان على هذه الحادثة، وفي نهاية الاسبوع الثاني كان الحاج مصطفى وزوجته وابنته في البندر لشراء بعض الحاجيات وأيضًا لعرض فاطمة على طبيبة للنساء والولادة؛ حيث أنها قد تأخرت في الحمل، وقد تسرَّب القلق إلى صدر أمها فأرادت أن تطمئن على ابنتها، فاستأذنوا محمودًا بأن تذهب معهم فوافق وقد كانت فرحتهم عظيمة عندما علموا أن فاطمة حامل في الأسابيع الأولى، وخاصة الحاج مصطفى فقد سجد لله شاكرًا، واشترى لفاطمة ثيابًا جديدة وأعطاها مبلغا من المال كى تشتري ما تريده للمولود القادم بعد عدة شهور، وفي طريق العودة لمح الحاج مصطفي شخص يقف على أول مدخل القرية. رافعا يده مشاورًا له كي يتوقف ولكن الحاج مصطفى كان حريصًا ألا يقف في هذه الساعة وفي هذا الظلام لأحد لولا أن سمع صوت بهلول،

كان بهلول يجلس في الظلمة ينتظر قدوم الحاج الذي لم ينتبه إليه في بادئ الأمر ولكن بهلول قد أخذ في الصياح وهو يجري خلف السيارة حتى توقف مصطفى مستفسرًا..، ونزل من السيارة عندما عرف أنه بهلول وصل إليه بهلول وهو يكاد يلتقط أنفاسه، فقال له:

- ماذا حدث؟ ولماذا تجلس هنا وتترك البيت؟

فقال له بهلول وهو يَلْهَث:

- محمود.. محمود... البوليس... البوكس...
- لم يفهم الحاج مصطفي منه شيئًا فطلب منه الصعود إلى السيارة بجوار فاطمة وانطلق حتى وصل إلى البيت، فوجد عددًا من العسكر ينتظرون أمام البوابة الخارجية. وعندما وصل إليهم.، تقدَّم أحدهم وقال له: .
- نحن متأسفون يا حاج مصطفي ولكن الأوامر أن تأتي معنا إلى مركز الشرطة، إن محمود زوج ابنتك محجوز هناك.

اندهش مصطفى وقطَّب حاجبيه وسأل الرجل:

- لماذا يا شاويش؟

قال له العسكري:

- لا أعلم شيئًا، إن الأوامر التى وجهت لنا أن ننتظرك حتى تحضر وتأتي معنا، كانت فاطمة في هلع وخوف على زوجها وهي لا تصدق أذنيها وما سمعت الآن، أدخل مصطفي أسرته إلى المنزل وشدد على بهلول أن يمكث معهم ولا يتركهم حتى

يعود، كان مخفر الشرطة في القرية المجاورة لهم فأركب العسكر معه وانطلق إلى المخفر حتى وصل، بالرغم من أن الحاج مصطفى كان في موضع اتهام إلا أنه قد لاقى احترام الموجودين في المخفر، ثم أجلسوه على كرسي في غرفة الضابط وأرسل الضابط جنديا كي يحضر محمودا من الحجز

جاء محمود وبعد أن رأى الحاج مصطفي انفجر في البكاء وهو يقول:

- والله مظلوم ياعمي،هل أنا سارق؟! أنا لم أسرق شيئًا ولا أدرى ما حدث؟ طلب الضابط من محمود أن يصمت ثم أخذ يحكى للحاج مصطفى ماحدث، فقال له:
- اسمع يا حاج، كلنا نعرف من أنت وما هي شخصيتك ووسيرتك الطيبة في المركز كله، ولكن نحن الآن أمام قضية محكمة الجوانب من كل شيء،هناك مسؤول عن جريمة اختلاس وسرقة وقد وجدنا المسروقات.
- فقال له مصطفى وهو ذهول:
- أنا لم أفهم شيئًا يا حضرة الضابط..

فقال له الضابط:

- المهندس محمود زوْج ابنتك قد اختلس أربعين جوالا من البذور والأسمدة التى في عهدته وقد خبأها في أحد مخازنك.

فقال له الحاج مصطفى:

- كيف يختلس أربعين جولا دون أن يراه أحد؟.. وكيف حملها بمفرده؟... قد يكون شخصا آخر يا حضرة الضابط ويريد أن يضر بسمعتنا وشرفنا في المنطقة.
- يا حاج مصطفى إن مفاتيح المخازن في الجمعية مع المهندس محمود والمخازن قد فُتِحَت بمفاتيحها وليس هناك شُبهة كسر أو اقتحام عُنْوة للمخازن، وزوْج ابنتك هو الوحيد الذي يفتح ويغلق المخازن، أما العاملين معه فقد أنكروا جميعا ونفوا التهمة عن أنفسهم، وأحضروا شهودًا بذلك كما أنهم لم يمتلكوا مفاتيح لهذه المخازن والدلائل تشير إلى أن محمودًا قام بالسرقة لصالحك، حيث وجدنا المسروقات في أحد مخازنك، وعليه سوف تُحال القضية إلى النيابة صباحًا، فأنا ليس بيدى شيء والأحسن أن تستدعي محاميا بسرعة.

شعر الحاج مصطفى بجدران الغرفة تدور من حوله وأن الدنيا قد اسودت في عينيه فجأة، وبألم شديد يجْتاح صدره وكأنّ سكينًا حادًا قد غُرِس في قلبه حتى نَصْله،.. كانت الصدمة أكبر من أن يُجَابهها أو يتحداها، وشعر أن حياته تنسحب أمام عينيه في لحظة ثم سقط مغشيًا عليه لا يستطيع الحراك، التف حوله الجمع الموجود في غرفة الضابط يحاولون إفاقته بينما محمود انفجر باكيًا بصوت مرتفع وهو ينادى عليه أمر الضابط أن يحملوا الحاج مصطفى ويوصلوه إلى بيته، وأن يقف أمام البيت اثنان من العساكر حتى يسترد عافيته، ويُوَضع محمود في الحجز وتبلغ النيابة بمستجدات القضية قام أحد العساكر بقيادة السيارة التي كانت تنهب الأرض نَهْباً حتى وصلت إلى بيت الحاج مصطفى، فحملوه حتى وضعوه على سريره بينما أصوات البكاء تخرج من عائشة

وفاطمة وبهلول، لم تمض دقائق وكان طبيب الوحدة الصحية أمام الحاج مصطفى يحاول إفاقته، كان الحاج مصطفى في الرمق الأخير بينما آذان الفجر ينبعث من مسجد القرية، فتح الحاج مصطفى عينيه وكأنه يبحث عن أحد ما، وجال ببصره في أنحاء الغرفة حتى استقر على وجه عائشة وابتسم ثم نظر إلى فاطمة الباكية وقد مالت عليه تُقَبِّل جبينه، وقال بصوت هامس: سمير، ثم أغمض عينيه. كان الهبوط في القلب حادًا قد وصل إلى منتهاه ولم يستجب لأي تنشيط وكأنه استسلم لقدره، نظر الطبيب إلى الموجودين بالغرفة وقال لهم:

- البقاء لله، سوف أرسل تصريح الوفاة والدفن مع أحد الممرضين.

شقَّ صوت فاطمة سكون الليل مُوَلْوِلة بينما عائشة تضرب وجهها وصدرها وارتفع بكاء بهلول عاليًا كأن الذي مات الآن هو أبوه، فمال على الجسد المُسْجى يُقَبِّله من رأسه ويحتضنه، ولم تمر دقائق حتى امتلأت الغرفة والباحة الخارجية للمنزل وخرجت القرية عن بَكْرة أبيها تقف حول المنزل وتجلس في الشوارع المجاورة برغم الشائعات التي قد روَّجها البعض عن سرقة الحاج مصطفى وزوج ابنته للجمعية الزراعية، ولكن من يصدق أكذوبة كهذه!.. أما فاطمة فقد شعرت فجأة أنها أصبحت وحيدة تماما... لقد مات أبوها الآن وزوجها محبوس في الحجز وأخوها يبعد عنها آلاف الاميال، وتوقف عقلها عن التفكير، اذاً ستفعل وهي الآن دون سند أو رجل يحمل عنها هذا الحمل الثقيل؛ فجرت إلى هاتفها المحمول تحاول أن تكلم أخيها ولكن لم تفلح في الاتصال به لضعف الشبكة في هذه القرية. ماذا تفعل؟ دخلت بسرعة وكتبت كلمات قليلة وأشارت إلى أحد الشباب الذين يقفون في ساحة المنزل، وطلبت منه أن يرسلها كبرقية مستعجلة لأخيها في

إيطاليا، تجمع كبراء القرية وشيوخها من الذين كانوا دائمًا برِفْقة الحاج مصطفى في فعل الخيرات وقضاء حوائج الناس، وأقروا أن يدفن الحاج مصطفى بعد صلاة الجمعة ولا داعي للتأخير، وأن يتحملوا جميعًا كل ما يلزم من مصاريف الدفن والعزاء في سُرادِق يليق بالحاج مصطفى، وأخذ ميكرفون المسجد يعلن مرارًا وتكرارًا عن وفاة الحاج مصطفى الزيان.

كان الوُجُوم والحزن قد خيَّم على الجميع حتى الجدران أيضًا باتت وكأنها قد لبست الحداد على هذا الرجل، أصوات البكاء الصادق الحار يخرج من البيوت، لم يتبق في البيوت من رجال ونساء وشيوخ وأطفال إلا وقد خرج لتشييع جثمان هذا الانسان الطيب المعطاء، أما خطيب المسجد فقد أفرد الكثير من الوقت لوفاة الحاج مصطفى وذكرخِصاله و حسناته ومروءته التى لا تخفى عن الكثير، بينما قد جلس هناك في الصفوف الأولى عُصَبة الشر، وقد ظهر عليهم التململ والتأفف والضجر، ونظرات العمدة وكأنها تقْدَح شررًا لخطيب الجمعة لعدم ذكره بأي إشارة، بينما كل المدح والكلام المأثور للزيان، ياله من رجل متعب في حياته ومماته، وأخذوا يتبادلون النظرات وهم لا يقدرون على فعل شئ. وتوافدت الجموع من خارج القرية على المسجد وامتلأت الشوارع المحيطة بالمسجد والكل يتسارع؛ ليساهم في حمل الجثمان المُسْجي في الصندوق الخشبي، ثم بدأت الجنازة كان الشباب يتسابق في حمل الجثمان وقد التفوا حول النعش ودموعهم تنساب على وجوههم حارة... وقد تقدَّم الصفوف الأولى أعيان القرية والقرى المجاورة يتوسطهم العمدة وشيخ الخفر، أما باقي القرية فكانت في طوابير طويلة على مد البصر. ما هذا الحب الذي تُرْجِم في هذه اللحظات!!!. من العجيب في

الأمر أن جميع أهل القرية يعلمون تمامًا مَن هو السبب في وفاة الحاج مصطفى، وينظرون إلى العمدة وبطانته بكل الكره الذي يسكن الأرض ويتهمونهم بأنهم السبب في كل المصائب التى تحدث للقرية،... ولكن هل هناك أحد يتجرأ ويرفع صوته لا أحد، بل أن الصمت سوف يطول ويطول بعدما تم إسكات هذا الصوت الحر الذي كان لا يخشى إلا الله..، كان كالشوكة في حلوقهم الآن اختفى الصوت وكُسِرَت الشوْكة، ولن تقوم لآل الزيان قائمة بل لن تقوم لهذه القرية مرة ثانية قائمة، وسوف ينفتح المجال للعمدة وزبانيته يرتعون في الأرض ويعيثون فيها فسادًا، يالها من أيام سوداء سوف تكتنف هذه القرية المسالمة

صوت مدام " إيمليا " الرفيع تنادي علي سمير من خلف الباب، كان فندقًا مكونًا من طابقين به عِدة غرف فاستأجر غرفة في الدور الثاني مُطلة على حديقة عامة و إميليا هي صاحبة الفندق في نهاية العقد الخامس..، سيدة ممتلئة الجسم قصيرة، تمتلك وجهًا بشوشًا دائمًا وبرغم وزنها الكبير إنما تمتاز برشاقة غريبة تلاحظها أثناء صعودها درج النُزُل المتجهه إلى الدور الثاني، قد تشعر أنها تطير أوأنها لديها وَثْبَات جبارة.... قام سمير متثاقلًا يشعر أن جفونه بها أثقال تجعلها صعبة الفتح، وصداع شديد مصاحب بدقات كأنها مطارق من حديد، وشعر بجسده وكأن شاحنة قد صدمته للتوِ، وفتح الباب وقبل أن ينطق بكلمة ناولته برقية من مصر، كان يحسبها من إدارة الكلية..، ولكن عَلَت ضربات قلبه وأصبحت في صَخَب عندما رأى المرسِل للبرقية هى أخته فاطمة؛ فاعتدل في جلسته وفضَّ المظروف الصغير سريعًا..، وفتح الورقة فإذا بها رسالة قصيرة جدا.. كانت بدايتها: "...أخي الحبيب. حاولت الاتصال بك تليفونيا ولكن لم يفلح ذلك. البقاء لله لقد مات الوالد الليلة الخميس،.. وسوف يُدْفن غدًا بعد صلاة الجمعة، وانتهت الرسالة. كانت الكلمات كالصاعقة التى نزلت على رأسه،.. وأخذ يُحَدث نفسه كالمجنون. وهو يدور في أنحاء الغرفة: " لقد مات أبي. مات أبي.. مات دون أن أراه أو اشعر به.. هل مات غاضبا منى؟. هل سامحنى على بعدى عنه كل هذه السنوات؟.. ياويْلى.. ماذا أفعل الآن أشعر أنهما في كرب عظيم، الآن أمي وأختى ومحمود بمفردهم، وانتفض واقفًا وحاول الاتصال بهما دون جدوى فكل الخطوط الدولية مشغولة أو لا تعمل من رداءة الجو أو انهيار الشبكة، فقال لنفسه يجب أن أعد حقيبتى فورًا، ودون أن يفكر في شيء، لا العمل أو حتى رسالة الدكتوراة التي بقى عليها شهور قليلة، ورفع سماعة التليفون يستفسر عن أول رحلة متجهة

إلى القاهرة، وضع السماعة بعدما عرف أن أول رحلة ستقوم للقاهرة في صباح الغد،.. ومالبث أن وضع ما يستطيع وضعه في حقيبته حتى رن جرس الهاتف، رفع السماعة بسرعة كان صوت بن رحمة.. يستفسر عنه وعن أحواله، فحكى له ما قرأه في الرسالة وماذا حدث بعدها، فوجئ بن رحمة بهذه الأحداث وقال له لا تتحرك سأكون في بهو الفندق بعد قليل فلتنزل لنتكلم في الأمر،.. مرت دقائق ثم أبلغته مدام إيميليا بحضور سنيور بن رحمة..، فنزل سمير مسرعًا وجلسا في ركن البَهْو وقد أحضرت إيميليا لهم القهوة..، فقال له بن رحمة:

- هل تيقنت من الأخبار أم أنك تتوقع شيئا ما؟.

مد له سمير يده بالرسالة وهو شارد الفكر، فقرأها بن رحمة ثم ظهر على وجهه التأثر وقال له يواسيه:

- البقاء لله يارجل، ولكن يا صديقي الموت علينا حق ويجب أن تأخذ الأمر برَوِيَّة.. هل فكرت أن سفرك في هذا التوقيت قد يدمر كل ما فعلته خلال أربع سنوات كاملة وكأنك لم تتقدم خطوة؟!.

فرد عليه سمير غاضبًا:

- فليذهب العمل ورسالة الدكتوراة إلى الجحيم، إن أمي وأختى في كرب عظيم وليس هناك أحد يقف معهم، لقد عزمت على السفر سريعًا لهما وليفعل الله مايشاء.

فقال له بن رحمة مواسيًا.

- اهدأ يا فنان، كل ما أرجوه منك أن تؤجل سفرك أيام قليلة..

رد سمير مقاطعا:

- الدفن لا يؤجل يا بن رحمة كيف يُدفن أبي ولا أحضر دفنه؟ ألم يكفي أنه مات وابنه ليس بجواره؟ لقد حجزت على طائرة الفجر المتجهه إلى القاهرة.

أذْعَن بن رحمة لكلام صديقه وقال له:

- سأمر عليك في الموعد لأقلك إلى المطار.

شكره سمير ثم صعد إلى غرفته، كانت الدقائق تمر عليه ثقيلة ينظر كل لحظة إلى ساعة الحائط المعلقة أمامه ويخالها لا تتحرك فيعود وينظر إلى ساعة يده،.. ثم جلس على كرسيه ووضع رأسه على يديه مستندًا على مكتبه ومن شدة الإرهاق والتعب راح في إغفاءة سريعة قام بعدها منزعجًا، عندما سمع بطرقات إيميليا على باب غرفته تُعْلِمه أن صديقه قد حضر، ثم واسته بكلمات قليلة وهو يخرج من النُزُل.. كان الطريق إلى المطار طويلاً. فكان يستحث بن رحمة في زيادة السرعة، وفجأة حدث مالم يكن في الحسبان فقد أبرقت السماء وأرعدت ثم سقط المطر غزيرًا.. حتى كاد أن يخفي معالم الطريق أمامهما حتى وصلا إلى المطار، واتجها مباشرة إلى مكتب الحجز لينهيا الإجراءات، نظر سمير إلى لوحة الاعلانات فخرجت منه صرخة لم يتمكن من إخفائها وكاد أن يسقط على الأرض لولا ذراع صديقه الذي حال سقوطه..؛ نظر بن رحمة إلى لوحة الإعلانات وقد فهم ما حدث.. كانت جميع الرحلات المتجهة إلى الشرق الأوسط من هذا المطار ومن بينهما مصر معلقة إلى

أجل غير مسمى لحين انتهاء العاصفة، جلس الصديقان في صالة الانتظار ما يُقارب الساعتين حتى باتت أعصاب سمير على وشك الاحتراق، نظر بن رحمة إلى ساعته بقلق،.. وكأنه قد تأخر عن موعد ما..، فلاحظه سمير وقال له:

- لا فائدة من مكوثك معي يا بن رحمة..، اذهب إلى أشغالك وأمورك.. يكفي كل هذا الوقت واشكرك على تعبك.

وقف بن رحمة وسلم عليه وشد على يده واستأذن في الانصراف، في هذا الوقت كانت الدقائق تتسارع لتكمل الساعة تلو الساعة وسمير يتمنى لو أن الزمن يتوقف الآن حتى يلحق بجنازة والده، وفجأة سمع سمير اسمه في ميكروفون الصالة أن يتجه إلى قسم الجوازات للانتهاء من الإجراءات، نظر سمير إلى اللوحة وتعجب إن اللوحة لم تتغير، فلماذا يطلبون جواز السفر؟.. تحرَّك سمير حتى وصل إلى مكتب الضابط المسؤول فوقف الضابط مُحييا له بابتسامة بينما موظف آخر قد حمل عنه حقيبته، كانت دهشة سمير آخذه في الازدياد عندما أعطاه الضابط جوازه وأشار له أن يتبع الموظف الذي حمل حقيبته، فسار خلفه دون أن ينطق بكلمة ورأسه يكاد أن ينفجر، حتى فتح باب يؤدي مباشرة إلى سيارة متوقفة يقف أمامها رجل يلبس بذلة سوداء حياه برأسه وفتح له الباب حتى جلس بينما وضع الموظف حقيبته في صندوق السيارة، وانطلق السائق داخل المطار حتى توقف بجوار طائرة صغيرة تقدم السائق وفتح له باب السيارة وتقدم أمامه حتى وصل إلى سلم الطائرة وأعطى حقيبته إلى مضيفة تقف على أول السلم، كانت المشاهد تتحرك بسرعة أمام سمير وكأنه أمام فيلم سينمائي.. ماذا يحدث.. هل أنا في وعيي.. وما هذه الطائرة؟ ومن هؤلاء القوم؟.. في لحظات اليأس قد

يصدق المرء كل ما يراه ليس كأنه حقيقة بل وهما غير قابل التصديق، يزيد من يأسه وإحباطه كأنه اسقاط لحاجة مُلحة.. ولكن كانت الصدمة التي أعادته لأرض الواقع.. من الذي يقف بجوار الطائره.. هل هذا معقول؟ إنه بن رحمة.. ماذا يفعل هنا؟ جرى عليه بن رحمه وأخذه من ذراعه يجره جرًا نحو الطائرة، وقال له: هيَّا ياصديقى يجب أن تلحق جنازة والدك، لم يدر سمير أين اختفت الكلمات،.. كانت الدموع أقرب إليه في التعبير فأخذت طريقها مسرعة على وجنتيه.. أمعقول! طائرة خاصة لي يا بن رحمة..! لم يفق من الصدمة إلا بعد أن أغلق الباب وتحركت الطائرة مبتعدة ويد صديقه تلوح له وشفتيه تتحركان.. مع السلامة.

(ضربة معلم)

هكذا قالها سلامة الغنيمي وهو يقهقه ضاحكًا في وجه الثعلب الماكر إبراهيم التهامي، وقال له:

- سأشهد لك بأنك الشيطان نفسه، بل أن كل الشياطين بجوارك تلاميذ ينهلون الشر منك.

نظر إليه التهامي وهو مَزْهُوًّا بفعلته وانتصار شره وأفكاره الجهنمية.

- لقد قلت لك يا عمدتنا الغالي، سوف انتقم منه انتقاما رهيبًا ولم تصدقني..

فقال له العمدة وهو يضرب كفا بكف:

- لقد صدّقت وآمنت، ألم تَخَف أن يَشِي بك أحد ممن استأجرتهم في خطتك الجهنمية، لقد ضربت عصفورين بحجر واحد.

فابتسم إبراهيم ولكن بمرارة وتحسس وجهه بكفه، نفس هذا الجانب الذي تلقى الصفعة الجبارة من كف المرحوم، ثم قال له:

- بل صقر وعصفور.

ثم أرَدَف قائلاً بعد ان نفث دخان سيجارته في الهواء:

- يا سلامة بك، كل واحد ممن استأجرتهم. لي دين في رقبته، وهم يعلمون جيدًا أن حريتهم بإشارة من يدي؛ ولذا كانوا على استعداد أن يقوموا بتنفيذ ما أريده منهم في أى لحظة..

فقال له العمدة وقد ظهرت عليه علامات الامتنان والشكر:

- لقد قدَّمت لي خدمة العمر، ووضعت عائلة الزيان على طبق من فضة وقدمتهم لى، سوف اكافئك على صنيعك هذا، فلتطلب ما تريد.

كان التهامي شارد الذهن يفكر في شيء آخر بعيد كل البعد عن ذهن العمدة، ولكن قال له:

- يجب أن نظهر في الصور ونحفظ لنفسنا هَيْبَتها، ونقدم خدماتنا لآل المرحوم ونقف معهم في عزائهم، فنحن كبراء البلد يا عمدة، أقصد أنك كبير العائلة والقرية وحاميها.

تنحنح العمدة قائلاٍ.

- بالطبع، يجب أن نقف الليلة نستلم العزاء من المعزيين، وكأننا أصحاب الحزن سوف نقيم سُرَادقًا كبيرًا ونحضر فيه المقرئين من البند، ر. ونكون في صدارة الصورة.
- في هذه اللحظة كان على باب الغرفة أحد الخفراء يطلب الإذن في الدخول عليهم، ولمَّا سمح له مال على أذن إبراهيم التهامي وأسَرَّ له بكلمات قليلة..، فقال له التهامي:
- انصرف أنت وارجع إلى مكانك.

نظر إليه العمدة مستفسرًا، فقال له إبراهيم التهامي:

- أن أهل البلد تكاتفوا واشتركوا في إقامة سُرَادِق كبير في الفضاء الذي بجانب الجمعية الزراعية.

فقال له العمدة غاضبًا:

- ومن أين أتى هؤلاء الغجر بالأموال؟... وكيف يقيمون سرادقًا بدون معرفتي؟ وبدون إذني؟.. سوف أهدم هذا السرادق على رؤوسهم جميعًا وسوف ينالون مني أشد التنكيل.

قاطعه إبراهيم وقال بمكر ودهاء:

- يا كبيرنا ماهكذا تدار المِحْنة، يجب ضبط النفس، واتخاذ سياسة النَّفَس الطويل، هؤلاء الفلاحين الآن في أشد ثورتهم وهم يشكون أننا وراء كل المصائب التى تُحيق بهم..، وإن تعرضنا لهم بسوء فسوف يجمعون أنفسهم في قوة واحدة وستكون هناك ثورة، ولن تكون النتائج لصالحنا إذا علم بها من في البندر من المسؤولين وسوف يكون هناك سؤال وجواب،.. ونفتح على أنفسنا يومئذ أبوابًا قد أغلقناها وليس لنا طاقة لفتحها مرة أخرى، اهدأ يا كبير، إلى أن تمر هذه المَوْجة العاتية، ولنا بعد ذلك حسابات أخرى.. فأين يذهبون؟.

قال له العمدة موافقًا على كلماته:

- عندك كل الحق يا مساعدي العزيز، لا أعلم ماذا كنت أفعل لو لم تكن بجواري؟

قال التهامي وهو ينظرإليه بنظرة ذات مغزى،.. ويضرب بيده على رقبته:

- رقبتي فداك يا عمدتنا، المهم أن نكون في المساء من أول الموجودين، ويقف الخفر خارج السرادق في صفين متقابلين

ونحن في نهاية الصفين نستقبل المعزيين، سيقربنا هذا الموقف للست خديجة وابنتها.

قال العمدة بسخرية:

- والمحروس ابنهم ألم يعلم بما حدث؟!. أم أنه ليس على استعداد أن يترك بلاد الغرب كي يحضر إلى الأرياف ليأخذ عزاء والده.

فقال إبراهيم متهكما:

- هذا الخواجة لا تضعه في الحسبان..، فهو مجرد شاب لين مَعْتوه ضعيف الجسم والشخصية ناعم كما الفتيات،.. لم ينشأ على قسوة العمل، إنما نشأ على اللعب في الطين، فهو ليس كما أبيه.. هو يأخذ الاسم فقط، هل تصدق يا عمدة إن فاطمة أخته هي أرجل منه؟

ثم قهقه عاليًا وقد شاركه العمدة في ضحكاته الساخرة.. فقال له العمدة:

- لقد اتصلت بمختار أن يترك ما بيده ويحضرمن الإسكندرية فورًا كي يكون في العزاء أيضًا، فهو كان يومًا ما صديقا لابنهم.

فقال إبراهيم:

- تفكير صائب. أما أنا فسوف أذهب إلى البيت لآخذ قسطا من الراحة واستعد للعزاء إلى اللقاء يا كبير.

قضى سمير وقته بين إغفاءة وصَحْو ينظر في ساعة يده، وهو يأمل أن يصل قبل موعد الدفن كي يودع والده إلى مَثْواه الأخير، كانت المضيفة تسأله بأدب جَمٍّ عما يحتاجه من مشروبات أو طعام.. وهو يشكرها رافضًا كل شئ..، فنفسه قد عافت الأكل والشراب هو يفكر فقط في فقيده الحبيب الذي كان بعيدًا عنه لسنوات وكان يدعمه عن بعد ويرسل إليه ما يحتاجه من أموال كي تعينه على دراسته..، وصلت الطائرة إلى مطار قبرص..، وانتظر طائرة مصر للطيران التي ستقلع إلى مطار القاهرة بعد ساعة.. حاول الاتصال بأخته فاطمة أو بمحمود دون جدوى كانت الدقائق تمر سريعًا وكلما مرت كلما ضعف الأمل عنده، وازدادت عصبيته حتى فقد الأمل تمامًا عندما وجد خبر عن تأخر الطائرة المصرية عن موعدها ساعة كاملة في لوحة الإعلانات، كانت أعصابه في طريقها للانهيار كأنه في سِباق مع الزمن ولكن يأبي الزمن إلا أن يهزمه؛ فانخرط في بكاء مرير؛ حتى تجمع عليه بعض المسافرين يهدئونه ويسألونه عما يبكيه، فلما أخبرهم ازدادوا تأثرًا بل أن بعض السيدات قد أدمعن لهذا الموقف الصعب، لم تمض الساعة حتى سمع صوت المضيف الأرضي يعلن عن وصول الطائرة المصرية وعلى الركاب التوجه إلى صالة الركاب للاستعداد للصعود كانت الطائرة قادمة من روما بعدما هدأت العاصفة وسوف تمكث دقائق ترانزيت، اتجه سمير مسرعًا حتى وصل إلى الصالة وكان أول الصف وكأنه سيصل أولاً قبل الآخرين...، الدقائق مازالت مسرعة حتى كادت الساعات تتنافس في إنهاء هذا النهار، حتى كادت أعصابه أن تحترق لم يهدأ حتى بدأت الطائرة في التحرك والصعود في الهواء تشق أجواء السماء..، كان هندامه مبعثرًا مُشْعَث الشعر، منتفخ العيون من الدموع وقلة النوم،.. تشفق عليه إذا رأيته، مرت أمامه صور من حياة والده

وكيفية تنشئته على حياة الرجال، اشتاق لقسوته وحنانه، وعطفه وكرمه عليه، تمثلت صورته أمامه وهو ينصحه بأن يشتد عوده ويكون خليفته،.. أن يكون امتداده حتى لا تخْبو شعلة الزيان ولا تنكسر شجرتهم..، يشعر الآن أنه قد خَذَله، أنه لم يكن بقدر المسؤولية التي هرب منها إلى القاهرة ومنها إلى إيطاليا..، يُخَالِجه شعور الآن بأنه أصبح قَزَم بجوار قامة أبيه العملاقة، وأن الجدار الصلب الذي كان يحتمي به قد انهار فجأة بدون مقدمات، ماذا سيفعل الآن؟.. إن معالم الطريق قد تماوجت أمامه حتى أصبحت هَبَاء لا تفاصيل فيها..، والحياة قاسية لا ترحم الضعيف، وهو ليس من هذا النوع الذي يتحدث بعضلاته أو بصوته الجهوري،.. هو عاش حياة كلها ترف ونعومة. كيف سيواجه هذه الحياة؟!!... انتبه سمير إلى صوت المضيف بربط الأحزمة والامتناع عن التدخين للاستعداد للهبوط في مطار القاهرة، وبمجرد دخوله المطار جرى إلى أقرب هاتف واتصل بالبيت وبمجرد أن سمع صوت أمه وهي تبكي حزنًا وفرحًا في نفس الوقت..، وهي لا تستطيع أن تجمع كلماتها حتى انهار وأجهش بالبكاء بصوت مسموع..، لم يهدأ إلا بعدما سمع كلمات أمه واضحة وهادئة ومتماسكة،.. حين قالت له: تماسك يا بني، ليس عندنا أطفال الآن، أنت رجل وابن مصطفى الزيان، لاتنسى ذلك، لقد دُفِن أبيك الآن..، وقد رجع الناس من المقابر... فقال لها.. سأكون في المقابر بعد ساعتين.. أرجو أن ينتظرني أحد هناك، وأغلق الهاتف وبعدما أتم إجراءات الخروج استقلَّ سيارة " ليموزين " تابعة للمطار إلى مقابر القرية.. كانت السيارة تنهب الأرض نهبًا، يجلس سمير في المقعد الخلفي مِنْ هيئته التي عليها تحسبه في الستين من العمر الأكتاف مائلة للأمام، والعينان شاردتان وشعيرات بيضاء كثيفة تظهر من تحت الكاب تنزل على فَوْدَيّه تحت نظارته الطبية

الأنيقة، عينان فيهما التركيز والحزن والتَّرَقُّب، الطريق من القاهرة إلى قريته في بني سويف طويل وغير مُمَهد في معظم أماكنه، وأصبح أطول مما عليه الآن كأنَّه لا نهاية له، إنه طريق زراعي قد اختفت معالم جانبيه في الحقول المترامية على مد البصر،.. أمَّا هو فقد مرت عليه السنون كسحابة صيف لم يشعر بها، وفجأة وجد نفسه على مشارف العقد الرابع، دون أن يتزوَّج أو يؤسس أسرة بالرغم من إلحاح أبيه عليه، الآن توَفَّي والده فجأة بينما هو في الغربة دون أن يراه، شعر لأول وَهْلَة أنه قد شاخ فجأة وأن ظهره قد انحنى وأصبح مُثقلاً بالهموم، وأنه فعلاً أصبح يتيمًا وهو في الأربعين من عمره، يقولون دائمًا أنَّ الأب هو ظهر ابنه وحمايته، مهما كان هذا الظهر ضعيفًا، تذكَّر طفولته في هذه القرية الهادئة الناعسة في حضن الجبل، كيف كانت تنتهي كل مظاهر الحركة والحياة بعد صلاة العشاء فليس هناك سَهَر ولا سَمَر، الكل يعود إلى داره بعد التعب والكد طوال النهار في الحقول، فاقتصرت حياة الناس على النوم مبكرًا والاستيقاظ مبكرًا لصلاة الفجر ثم بداية حياة أخرى. مازالت السيارة تسير به في طريق متعرجة بين الزراعات والحقول وشعر بصداع شديد فأسند رأسه على مسند المقعد وهو ينظر إلى البعيد، مرت الدقائق مَلوُلَة بطيئة مع صمت السائق الذي احترم حزنه ولم يَنْبَس بِبِنْت شَفَة، إلى أن ظهرت معالم الكوبري الكبير الذي سينقله إلى الضفة الأخرى من النيل حيث المقابر خارج القرية في حُضن الزراعات والحقول، كان الطريق إلى المقابر مختصرًا بعيدًا عن مدخل القرية فلم ير أحد السيارة التى تقل سمير ولم يعلم أحد بوصوله فقط أمه وفاطمة وبهلول..

كان السُرَادِق المُقَام في الأرض الفضاء خارج القرية واسعًا وكبيرًا يليق بهذه الشخصية العظيمة التي أجمعت القرية على حبها وأيضا الحزن عليها الآن، لأول مرة يشعرون أنهم يدًا واحدة لهم هدف واحد حتى ولو كان هذا الهدف رد الجميل للرجل الذي ترك بالغ الأثر في نفوسهم، فالمصائب والفرحة تجمع الناس وتلغي مابينهما من خلافات..، ويصبحون على قلب رجل واحد فكانوا سعداء بهذا الحَشْد المتعاون وكأنهم كانوا ينتظرون أي ظرف طارئ يجمعهم ويشعرهم بقوتهم وذاتيتهم، عندما تدخلت فاطمة بالكلام معهم كي تدفع مصاريف الجنازة والعزاء؛ قُوبلت بالرفض الشديد والاستهجان من أهل القرية بالرغم من حالتهم المادية الرقيقة، وقالوا لها: نحن الآن مكان الدكتور سمير وهذا أقل شيء نقدمه للمرحوم الغالي، مما جعل فاطمة تُجْهِش بالبكاء وتترحم على والدها...، وكالمعتاد في هذه الظروف يتوجه المعزيون إلى السُرَادِق بعد صلاة العشاء ويمتد حتى ساعة متأخرة من الليل يستمعون للقرآن من شيوخ قد أتوا من القرى المجاورة للمجاملة أيضًا..، قبل هذا الوقت كان سمير يجلس في غرفته في الطابق الثاني ومعه فاطمة تحكي له كل ماحدث من أحداث مرت عليهم بالتفصيل بينما عائشة قد أفردت غرفة خارج البيت (المضيفة) لعزاء السيدات، كان سمير يسمع حوار أخته والغضب يتأجج داخله نارًا محرقة وأصبح وجهه وملامحه صارمة، فقال لها:

- اسمعي يا فاطمة، أنا ليس بيدي شئ الآن، ولكن أوعدك بوعد شرف أنني سوف أُبْرِئ ساحة أبي ومحمود من هذه التهمة الباطلة، أما الجُناة فلهُم عندي تدبير آخر،

ففزعت فاطمة وقالت:

- أرجوك يا أخي لا تتهور، نحن الآن ليس لنا بعد الله غيرك في الدنيا لا نريد أن نفقدك أنت أيضًا، هؤلاء عُصْبة الشر ونحن لا نطيق مكرهم وشرهم إن الله هو المنتقم الجبار.

فقال لها سمير، وعقله يعمل كما الطاحونة الدائرة:

- ونعم بالله، اتركينى الآن كي أرتدي ملابسي وأذهب إلى العزاء، يجب أن أكون قبل المعزيين.

فتركته فاطمة وأغلقت الباب، ثم نادت على بهلول كي يكون مستعدًا للذهاب مع الدكتور سمير.

في المنزل الكبير الذي يَقْطنه شيخ الخفر كان صوته عاليًا يستعجل ملابسه وهِنْدامه بعدما تلقي اتصالاً من العمدة يعلنه بأنه جاهز ومنتظره في بيته، حتى هَرَع إليه وهو يضع عباءة سوداء مطوية على كتفه وعمامته البيضاء، وعصا برأس معكوفة في نهايتها رأس أفعي من العاج، فقال له العمدة:

- متى سنذهب يا ابراهيم..

فقال له وهو يحك ذقنه.

- نحن لسنا كالعامة يا عمدة.. يجب ألا نذهب مبكرين حتى يمتلئ السُرَادِق عن آخره، ولكن سوف نرسل الخفر أولاً ليهيئوا لمَقْدِمنا، فيقفون أمام السَرَادِق في صفين متقابلين ويعلنوا عن مَقْدِمنا حين نصل إليهم.

فقال له العمدة:

- أتمنى أن تنتهى هذه الليلة على خير وننتهي من هذه السيرة المزعجة، ويطيب لنا الأمر في القرية بعد ذلك.

فرد عليه شيخ الخفر بكل ثقة:

- لماذا تقلق ياعمدتنا الغالي؟ إن الرجل الذي كنا نعمل له ألف حساب قد انتهي من حياتنا للأبد، وليس هناك من يجرؤ على أن يرفع رأسه بعده الحياة سوف تحلو لنا والخير سوف يزيد

فرد العمدة مُتَهَكِمًا:

- خير الزيان.

وقَهْقَه عاليًا ومعه إبراهيم مشاركًا ثم سكت إبراهيم فجأة، وقال له:

- يا عمدة أين مختار بيه؟ لماذا لم يأت حتى الآن؟ إن غيابه في العزاء ليس في صالحه ولا صالحنا.

فضحك العمدة قائلاً:

- مختار قد وصل منذ ساعة وهو جاهز وينتظر تليفون مني.

فتنفس إبراهيم الصعداء وكأن غياب مختار قد يخرب له ترتيبه وخططه، وبعد قليل دخل عليهم مختار وهو يتأنَّق مزهوًّا في ملابسه ونظر إلى إبراهيم نظرة ذات مغزى هو يعرفها، فقال له:

- الليلة تحتاج لسهرة يا مختار بيه؛ نغير فيها هذا الهم والحزن الذي سنرسمه على وجوهنا.

فقال له العمدة:

- اترك مختار في حاله إنه مرهق من السفر.

فابتسم مختارمزهوًّا قائلا:

- ليس هناك إرهاق يا عمدة نحن مازلنا شبابًا يجب أن تنام أنت باكرًا وتستريح.

نظر إليهم سلامة الغنيمي ولم يُعَقب وقال لهم:

- هيَّا بنا الآن.

نزل سمير الدَرَج بعدما انتهى من ارتداء ملابسه فوجد أمه تنتظره في أوله، فنظرت إليه وقد أُغرورقت عيناها بالدموع ففتح سمير ذراعيه ليضمها إليه فانفجرت في بكاء مسموع، تخلص سمير من يديها بهدوء وقبَّل رأسها ثم فتح ذراعه لأخته التى وقفت عن قرب كي تدخل في هذا العناق الأسري وانخرط الجميع في بكاء، حتى بهلول الذي يقف بعيدًا عند مدخل الباب ثم تركهم واتجه إلى بهلول الذي سبقه للخارج وقاده عبر طريق مختصر لا يمر داخل القرية حتى وصل إلى هناك، تقدَّم بهلول مسرعًا إلى داخل السُرادِق حتى وصل إلى أحد الشيوخ الذين كان يراه دائمًا مع المرحوم ومال على أذنه وتكلم معه كلمات قليلة؛ فهَبَّ واقفًا وسبقه إلى خارج السرادق فاتحًا ذراعيه وأخذه في أحضانه وبصوت باكي قال له:

- الغالي ابن الغالي

فرد عليه وهو بين ذراعيه.

- كيف حالك يا عمي الشيخ محمود.

فرد عليه الشيخ محمود وهو ينظر إليه بمشاعر يملؤها الحب والفخر.

- هكذا كان يريدك الحاج مصطفى دائمًا صورة منه وأنت الآن ما شاء الله طبق الأصل يا بني، من يرك الآن لن يصدق أن الحاج مصطفى قد توفاه الله.

ثم أشار إلى الخفر المرصوصين أمام السُرَادِق وقد فتحوا أشْدَاقهم من المفاجأة:

- هيَّا أيها الرجال، ادخلوا السُرَادِق إن أردتم العزاء لقد وصل صاحب العزاء الآن وهو مَن سيتلقى العزاء في والده.

فوقف سمير وبجانبه الشيخ محمود وبعضًا من عمال أبيه المخلصين، وفي هذه اللحظة كان العمدة وبطانة السوء يقتربون من السُرَادِق واندهشوا لانصراف الخفر دون استئذانهم وقبل أن يتكلموا أشار كبيرهم ناحية السُرَادِق دون أن يَنْبَس بكلمة واحدة، فأسقط في أيديهم و دخل الرعب في قلوبهم وخاصة العمدة عندما شاهد سمير يتلقى عزاء والده، فنظر إلى شيخ الخفر وعيناه تنطق بسؤال صارخ، مَن هذا؟

وقبل أن ينطق إبراهيم الذي لم يكن في حالة أفضل من سيده جاءته الإجابة على لسان أحد المعزيين وهو يقول: البقية في حياتك يا دكتور، هذا الابن الذي كانوا يتندرون عليه منذ ساعات إنه نفس الوجاهة والصرامة، مرفوع الرأس بأنف أشَّم نفس الجسم، ونفس الملامح أراد الجميع أن ينكصوا على أعقابهم ولكن كان الآوان قد فات، فوجدوا أنفسهم في مواجهة سمير، فمدوا أيديهم المرتعشة وكادوا أن يفضحوا أنفسهم فوجدوا قبضة من حديد قد اعتصرت أكفهم فزادهم رعبًا في أنفسهم. فتنحنح العمدة قائلا:

- البقاء لله يادكتور، الله يرحمك ياحاج مصطفى، كان أخي وحبيبي وصديقي الوحيد.

فنظر إليه سمير نظرة تنطق فيما يَعْتَمل في صدره ولم يعلق، أما إبراهيم ومختار فدخلوا صامتين بعدما سلموا على سمير دون كلمة واحدة، واتجهوا إلى أقرب مقاعد وجلسوا دون أن يرفعوا رؤوسهم لأحد، وهم يرمقون خِلْسة هذا العملاق الذي ظهر فجأة خارج السُرَادِق،

مرت الدقائق ثقيله عليهم نظر العمدة إلى شيخ خفره وعيناه كأنها أتَون الشر: لقد ضاعت هَيْبَتنا في لحظة واستحث ابراهيم أن يفعل شيئا، ولكن قد فات الآوان وانتظروا بعدما أنهى المقرئ وصلته الأولى من الربع الأول فقام المعزيين بالانصراف حتى يدعوا فرصة للقادمين بعدهم. هكذا الحال في هذه المناسبة والتف الجميع حول سمير يشدون على يده وهم مبهورون بحالته وصورة أبيه فيه.

لم يكن سمير يتوقع أنه قد أصبح مثل المرحوم في هيئته، ووقفته المنتصبة، و ملامحه الحقيقية قد تبلورت ووضحت جليا، وقد كان بعده عن القرية قد ترك في أذهانهم صورة سمير الشاب الهادئ الرزين ناعم الكف طيب السيرة والسريرة.

لم يجد إبراهيم التهامي فرصة أحسن من هذه اللحظة فأشار إلى العمدة ومختار فهمَّوا بالانصراف بعدما وقفوا في آخر الطابور كي يسلموا على سمير.

حكت فاطمة لأخيها جميع الأخبار والحكايات وما يتعلق بالعمدة وبطانته، ومضايقات مختار لهم ولصديقتها حتى انتهت بمقتل زوجها وكيف قُيدت الحادثة قضاء وقدرًا، وكيف تم القبض على زوجها بعدما لفقوا له تهمة الاختلاس والتى راح على إثْرها والدهم العزيز، بل أيضا هذا النصاب الذي يحتال على السُّذَج من أهل القرية ويسلبهم أموالهم بحكم الشفاء ومعرفة الطالع وإرهاب أهل القرية بألاعيبه وسحره؛ كي يظلوا تحت مظلة عمدتهم.

لم يتوقع سمير كل هذا الكم من الحقد والبغض والجبروت والقوة الغاشمة في إزهاق الحق ورفع راية الظلم والقهر من قبل العمدة وابنه وشيخ الخفر..، ولكن ماذا يفعل مع عُصْبة الشر هذه؟.. وكيف ينتقم لأبيه وزوج أخته ولزوج رجاء الطوخي المسكين الذي اغتيل غدرًا، ولكل أهل القرية المغلوبين على أمرهم؟.. وأخذت الأفكار تتصارع في عقله دون جدوى حتى سمع طرقات خفيفة على باب حجرته، ودَلَفت فاطمة تخبره أن بهلول يُصر على التحدث معه ولا يريد أن ينتظر حتى الصباح فتعجب سمير من ذلك وهز رأسه، وقال لها:

- دعيه يدخل حتى أرى ما عنده.

نزلت فاطمة الدَرَج حتى وصلت إلى بهلول المنتظرفي الأسفل..، فقالت له:

- اصعد يا بهلول ولا تتعب الدكتور بكلامك حتى يستريح من عناء السفر.

فهز بهلول رأسه موافقًا ورفع يديه في وضع الدعاء وأخذ يتكلم بكلماته المبهمة الغير مفهومة حتى وصل إلى باب الغرفة، وطرقها ثم دخل بعدما سمع صوت سمير ينادي عليه نظر إليه سمير قائلاً:

- ماذا بك يا بهلول؟ وما هذا الشئ المُلِح الذي جعلك لا تصبر حتى الصباح؟ استدار بهلول إلى باب الغرفة وفتحه وأخرج رأسه كي يتأكد من خُلو المكان ثم أغلق الباب بإحكام، بينما سمير يتعجب من هذه التصرفات المُريبة. تدارك سمير الموقف وسأله مازحًا:
- ماذا بك يا بهلول أتريد شيئًا أحضره لك من القاهرة؟

تقدَّم بهلول بثبات وبخطوات ثابتة ليس بها أي عرج حتى وصل إلى سمير، وأمسكه من كتفيه ونظر في عينيه بنظرة جادة لم يرها سمير أبدًا، ثم تكلم بصوت واضح عميق ليس به عيب:

- إنما أريد منك شيئًا أكبر من ذلك، أريدك أن تثأر لعمي الشيخ مصطفى وتظهر براءته حتى يرتاح في قبره، أريد أن تكون مثله رجل لا يهاب شئ ويعمل له هؤلاء المجرمين ألف حساب.

انتفض سمير وجحظت عيناه واصفر لون وجه وظن أنه يقف أمام جني، فأمسكه من كتفيه وهزه بشدة صارخًا فيه:

- مَن أنت؟! تكلَّم، أنت لستَ بهلول.

انتظر بهلول دقيقة حتى يستعيد سمير ربَاطة جَأشه، وقال له بهدوء:

- اهدأ يا دكتور، إنه أنا بهلول الذي تعرفه ويعرفه الجميع، إنما الذي لا يعرفه أحد أنا اسمي: " سعد محمد خلف " لقد حانت ساعة

حريتي وخروجي من هذه الأسمال البالية وهذه القيود التي كبَّلت بها نفسي لأكثر من عشرين عاما، ولكنني الآن أمامك على شخصيتي الحقيقية الشخصية التي انتظرت طويلاً حتى أكونها بعد أن آخذ بثأري أنا أيضًا من الذين سرقوا أبي، وكانوا سببًا في هجرته من القرية ووفاته هو وأمي " روحية خالد " في حادثة القطار المشؤوم.

هدأ سمير قليلًا وهو مازال تحت تأثير الصدمة وقال له مستفسرًا:

- ألك ثأر أنت أيضا؟ ومِنْ مَنْ؟

وأشار له بالجلوس فجلس بهلول ومد يده ليخلع من حول رقبته ما يشبه الحجاب الذي يصنعه الدجالون ولكنه أكبر حجمًا، ثم أخذ يفتحه برفق حتى أخرج ورقة مطوية عدة طَيَّات ومد يده بصورة قديمة وقال له:

- انظر جيدًا في هذه الصورة، إنه أبي وأمي وهذا الطفل الذي يجلس على رجليها إنه أنا، أنظر جيدا لهذه القلادة التي ترتديها أمي إنها الوحيدة والفريدة من نوعها لقد اشتراها أبي في إحدى سفرياته.

نظر إليه سمير وتعبيرات وجهه تدل على عدم فهمه من سرْد هذه القصة، ولكن بهلول قد تدارك الموقف وأكمل حديثه:

- هل تعلم أين توجد هذه القلادة الآن.؟

أومأ سمير بعدم معرفته، فقال بهلول:

- إنها في رقبة زوجة العمدة.. والسؤال الذي قد توصلت لإجابته مؤخرًا، كيف وصلت قلادة أمي إلى رقبة هذه السيدة؟.. لقد عانيت كثيرا من بُغْضها وكرهها لي كلما شاهدتنى أدخل إلى بيتها وأنا صغير، وتأمر بطردي في الحال في نفس الوقت الذي كانت بيوت أهل القرية مفتوحة لي وقت ما شئت ويعطفون علي بل يتمسكون بي كي أظل معهم.

فبادره سمير قائلاً:

- ولماذا كانت تكرهك بينما الجميع قد أجمع على حبهم لك وعطفهم عليك.

سكت بهلول قليلا كأنه يستجمع صورًا قديمة في عقله ورفع وجهه إليه وقال:

- لقد لفت انتباهي كثيرًا حركة كانت تفعلها بتلقائية شديدة. كلما رأتني كانت تعبس بوجهها وتضع يدها على صدرها وكأنها تحاول أن تخفي شيئا تحت يدها، حتى كانت في يوم ما لم تعلم بوجودي وتتحرك بحرية وشاهدت القلادة التي لم أخطئها وعدت أفتش في أغراضي حتى عثرت على هذه الصورة وتيقنت أنها لأمي.
- وكيف وصلت قلادة أمك إلى رقبتها؟
- الجميع يجمع على أن العمدة هو السبب فيما أنا عليه الآن بعدما حاصر أبي من كل اتجاه حتى يبيع له أرضه.

كان سمير يسمع الحكاية وكأنه في عالم آخر، وأخذ يستحث بهلول على تكملة حكايته فأردف بهلول قائلاً:

ولكن كان أبي عنيدًا ولا يخاف شيئًا، فبدأ يستجلب له اللصوص والمطاريد فيعيثوا الخراب في الأرض ويخلعوا الزرع ويهددونه بالقتل حتى استسلم أبي وقرر أن يترك القرية ويعيش في القاهرة؛ فباع الأرض إلى رجل لا يخاف العمدة ولا المطاريد إنه عمي المرحوم الشيخ مصطفى الزيان، ووضع المال في حقيبة كان يمسكها ومنذ هذه اللحظة بات أبي مهددًا بالقتل حتى كانت الليلة التى خرج فيها مع أمي وهي تحملني ومعنا حقائبنا وركبنا السيارة التي استأجرها أبي كي توصلنا إلى محطة القطار. لم ننتبه للسيارة التي كانت تتبعنا عن كَثَب منذ خروجنا من القرية حتى وصولنا إلى المحطة كان أبي قد حجز لنا مقاعد في عربة النوم، وتحرك القطار ولم تمض غير ساعة حتى انقطعت كل الأصوات في العربة، إذا بمجموعة من الرجال الملثمين يقتحمون كبينتنا شاهرين أسلحتهم، ثم وضعوا شيئًا على وجه أبي ووجه أمي فوجدتهم غائبين عن الوعي، فأخذ أحدهم الحقيبة التي كانت في يد أبي عُنوة و حملني آخر وخرجوا بعدما أغلقوا الكابينة، وقبل أن يقفزوا من القطار وهو يتهادي أشعلوا النيران في العربة كلها.. كانت سرعة القطار مع الهواء قد أدى إلى انتشار النيران في باقي العربات حتى أتت على معظم القطار وراح ضحيته العشرات من الركاب، ومن الرعب الذي شاهدته والاحداث السريعة التي مرت علي تلك الليلة أُصِبْت بفقدان مؤقت بالنطق وتلَعْثُم بالحروف بعد ذلك، ووجدت نفسي نائما تحت شجرة الجميز الموجودة على رأس أرضكم ومنذ ذلك اليوم وأنا اتنقل من دار إلى دار، يعطف علي أهل القرية بالطعام والملبس

حتى بلغت سن الشباب ففضلت أن استقل بنفسي بعيدًا عن بيوت القرية، ولم أنس أبدا ثأر أبـي وأمـي من هذا الغاشم وسيأتي اليوم الذي سوف انتقم منه ومن كل ظالم.

كان سمير يسمع بهلول وكأنـه يشـاهد أحد أفلام الغرب الأمريكـي، من السطو وحرق القطارات.. فنظر إلى بهلول مطولاً وكأنـه يفكر، ثم قـال له:

- أنت كنت صغير ولا تعي مثل هذه القصة بتفاصيلها التي تحكيها لي الآن، فكيف علمت بكل هذا؟
- حكايتى يا دكتور سمير يتغنـى بهـا المداحون وأهل القريـة كلهم يعلمونها، ولكن لا أحد يجرؤ أن يتفوه بها إلى العلن.

ثم مد يده إلى فتحة جلبابه فأخرج سكينًا طويلًا ملفوفا بقماش قديم عندما أزال القماش ظهر نصـله اللامـع؛ انـزعج سمير عنـدما شـاهد السكين، وقال له:

- اهدئ يا بهلول، ليست الأمور تؤخذ هكذا هناك قانون وحكومة، ثم مد يده وانتزعها من بهلول انتزاعاً ورَبَتَ علـى كتفه وأراد أن يخرجـه مـن حالتـه تلـك، وسـأله سـؤال وهـو يعـرف إجابتـه مسبقا:
- ما قصة رجلك أيضا؟

ابتسم بهلول حتى ظهرت نوَاجِزه.. وقال:

- هذه لها حكاية أخرى، لقد أوقفت حمارًا مسرعًا كاد أن يقتل أحد الاطفـال فوقـع الحمـار علـى سـاقي والحمـد لله قـد تعافـت دون أن يعلم أحد.

فسأله سمير قائلا:

- إذن لماذا فضلت المكوث في ثوب بهلول ولم تعلن عن نفسك وأنك صحيح معافى؟؟..

أطرق بهلول برأسه إلى الأرض وكأنه يبتلع مرارة علقت بحلقة، ثم رفع رأسه قائلا:

- لو كنتُ تكلمتُ وأعلنتُ عن نفسي لما وجدتَني أمامك الآن يا دكتور، الجميع مطمئن لشخصية بهلول الذي لا يفقه شيئًا ولا يعلم من الحياة شيئًا ويعتقدون أنني هائم على وجههى وأن عقلي توقف عند سن الطفولة، بمعنى أصح بهلول العبيط الذي لا خوف منه ولا أذى ويتكلمون أمامي بحرية في كل أمورهم حتى العمدة وبطانته.

نظر إليه سمير مطولًا وقد تصارعت الأفكار في عقله حتى استقرت على صورة واضحة فقال له:

- اسمع يا بهلول، إنني إنسان متعلم وعلى وشك أن أحصل على الدكتوراه من إيطاليا.. فهل يُعقل أن أضيع كل هذه السنوات من العلم في التفكير بالأخذ بالثأر.؟؟ هذه العادة العقيمة التى لا طائل منها إلا نزيف الدم المستمر، هذا محال هناك قانون سيطول كل مجرم في هذه القرية البائسة فلنتروى قليلاً وندع القانون يأخذ مجراه.
- نظر إليه بهلول وشعور بالخيبة يتسلل إلى نفسه وقال له ساخرًا:

- قانون! وأي قانون هذا الذي سيشفي غليلك على موت والدك وتلطيخ سمعته، ويخرج زوج اختك من محبسه؟!

تطلع إليه سمير وهو يحاول أن يمسك رباط جأشه.. وقال له كأنه يأمره:

- في الصباح سأقوم بتوكيل محامٍ لزوج أختى كي يترافع عنه، كل الذي أطلبه منك ألا تبارح هذه الدار حتى أعود.

نظر إليه بهلول وهو غير مصدق لما يسمعه..، إذن كل ما يُشاع من حديث على بن الزيان فهو صحيح، فهو ناعم ليس له في أمور المواجهه أو القوة والأخذ بالثأر من الذين ظلموا أبوه وزوج أختـه..، فلتذهب الثقافة والدكتوراه إلى الجحيم..، أنا الذي سوف آخذ بثأري من كل هؤلاء الطغاة، لم يخرجه عن حديثه النفسي إلا بوَكْزة من يد سمير وهو يسأله:

- ما بك يا بهلول؟ أرجو ألا تتصرف بهوجاء وتريَّث ولنا حديث آخر، وأريد منك أيضًا أن تشيع في القرية أنني سوف أسافر إلى إيطاليا لأكمل الدكتوراه.

نظر إليه بهلول والغضب قد أخذ منه كل مأخذ، وقبل أن يذهب نظر إلى سمير معاتبا وقال:

- لم أتوقع هذا منك يا دكتور، الله يرحمك يا حاج مصطفى..

أطلَّ الشاويش حسنين برأسه بعدما فتح باب المكتب ودخل منتصبًا يؤدي التحية العسكرية بكل همة ونشاط، بينما شاب على مشارف الأربعينات يرتدي بِزَته العسكرية يجلس إلى مكتبه يظهر عليه الاهتمام بمطالعته بعض الأوراق، لدرجة أنه لم يشعر بالسيجارة المنتهية في يده لم يخرجه عن اهتمامه إلا صوت ارتطام بيادة الشاويش بالأرض، وهو يؤدي التحية العسكرية فرفع رأسه مستفسرًا فمد الشاويش يده بورقة صغيرة فتناولها الضابط ونظر إليها باهتمام، عندما قرأ الاسم المُدوَّن فيها، فقال له الضابط:

- دع الاستاذ سمير يتفضل ولا تدع أحدًا يزعجني إلا بعد أن انتهي معه، فقال الشاويش حسنين:
- حاضر يا عصام بك.

ثم خرج من الباب وأشار لسمير أن يدخل ثم أغلق الباب عليهما، وجلس على كرسيه أمام باب المكتب.

وصلت الأخبار إلى دوار العمدة سريعًا كما قد علم بها كل صغير وكبير في القرية، وهي هروب سمير الزيان من المواجهه وسفره إلى أوربا، ومرت الايام وتنفس العمدة الصعداء وشعر بارتياح، ونادى على ابنه مختار يزف إليه البُشرى.
فقال له مختار وهو يظهر عدم اكتراثه بسفره أو بقائه..، ويعيب على أبيه هذا الرعب الذي قد سيطر عليهم منذ رؤيتهم لوجه سمير في العزاء. قائلا:

- يا أبي أنا لا أهاب سمير ولا مائة مثله كما أنه مثل الطفل المسالم الذي يخاف من ظله خلفه.

فقال له العمدة وهو يفكر:

- أنت لا تعلم شيئًا يا ولدى فإن كل الخوف من هذا الهادئ المسالم الذي يفكر بعمق ويتصرف برَوِيَّة، ولكن بما أنه قد سافر فإن كل الأمور هادئة وسوف نبدأ في التفكير في الاستيلاء على أراضي الزيان، ولن تقوم لهم قائمة بعدها وتصبح القرية كلها من أملاكنا.

فقال له مختار وهو يتأفف ضجرًا:

- أفٍ يا أبي، أراضي مرة أخرى، ماذا سنفعل بكل هذا؟؟ كما أننى قد زهدت المعيشة في هذه القرية البائسة وهؤلاء الفلاحين، سأستقر في الاسكندرية بعيدًا عن هذا العَبَث.

كانت كلمات مختار كالصاعقة التى وقعت فوق رأس العمدة الذي أخذ يندب حظه في خلفته، ويماثله بابن الزيان الضعيف الهارب الذي ليس له نفع ولا جدوى، وقال له بحدة:

- ما الذي غيَّرك يا عمدة؟.. ألست الوريث الوحيد لى؟.. أتهرب وتدعنى لقمة سائغة للذين يريدون أن ينهشوا لحمى؟.. فكل بيت في القرية له عندى مظلمة.. وكنت أعدك سندى وعزوتي. قل لى ماهذا التغيير المفاجئ؟.. أين أنت يا إبراهيم؟. كى تسمع وترى.
- فنظر إليه مختار شَذَرًا وقد علا صوته على صوت أبيه:
- إبراهيم يا أبي مرة أخرى هذا الأفعى المتلون الذي ينهب من خيراتنا يمينًا وشمالًا وأنت تغض الطرف عنه، ألا تدري أنه

يريد أن يطيح بك وينقل المنصب إليه بعدما وطَدَّ ثقته برجال المديرية من هِبات ورشاوَى هى أصلاً من خيرنا وخير أراضينا..

نظر إليه العمدة وهو يكاد أن يقع من كرسيه وأخذ يزبد ويرعد:

- ماذا تقول؟.. من الذي قال لك هذا؟.. إبراهيم التهامي!.. هل جننت؟! إنه خادمي وكاتم أسراري وأداتي التى اعتمد عليها.

فرد عليه مختار وهو يتأهب للانصراف:

- إنه أحد المقربين إليه.
- مَن تقصد يابني لا تتركني للأفكار هكذا.
- يا أبي لقد سئمت ما أنا فيه، أنا إنسان فاشل لم أصلح لشئ إلا الجري وراء النساء، ولقد عودتني أن كل ما أشير إليه هو ملكي..، ولكنني اكتشفت أنه ليس كل شئ يباع ولا يؤخذ عُنْوة، لقد فشلت في تربيتي، إني أنظر إلى سمير الزيان بحسرة وغيرة وأقول في نفسي ياليتك قسوت عليّ كي أنشأ رجلاً يتحمل المسؤولية..، إن كل مصائبي وجرائمي هي من صنعك أنت؛ لأنك لم تدلني مرة واحدة إلى الطريق المستقيم والذي أشك أنك لم تمش فيه خطوة واحدة.

ثم ترك أبوه وهو يضرب كفًا بكف غير مصدق، ولكن مالذي غيَّر مختار بهذا الشكل وجعله غير عابئ بكل شئ بل يُحمّل أبيه سوء تربيته له، ويريد الهروب من المحافظة كلها ويسكن بعيدا..؟

ظهر على وجه بهلول الأسى والحنق من سفر سمير الزيان مرة أخرى..، فأصبح كئيبًا سريع الغضب يكاد أن يخرج عن صمته وعن دوره الذي عاش فيه زمنًا طويلاً..، أيعقل كل صبر هذه السنوات متحملاً كل أنواع الشقاء والتعب على أمل واحد أن يأخذ بثأره وليكن ما يكون، فالثأر للرجال ذوي العزم والهمة والنخوة، أما ما يقوله سمير الزيان من تُرَّهَات وقانون وحكومة فهذه كلمات جوْفاء مطاطة لا تُسْمِن من جوع..، فمتى كانت الحكومة **تتدخل** في ثأرنا؟!! إنهم يأتون بعد نهاية القصة، لم يخرجه من شروده وأفكاره المشتعلة بلهيب الانتقام الذي قد حان آوانه وامتلأ تَثُّور الغضب داخله وفار حتى فاض على جوانبه، سيشتري سكينا آخر، وسيقوم بفعلته حتى ولو كانت حياته هي الثمن. ثم هز رأسه مُمْتَعِضًا حياتي؟! وأي حياة عشتها يا بهلول؟! لقد كنت مثل الطائر الحبيس داخل سياج قهره وخوفه من أن ينكشف أمره ويعلم زبانية العمدة أنه صحيح معافى؛ فيُعَجِّل بالتخلص منه كما تخلص من والديه من قبل سامحك الله يا دكتور سمير.

أخرجه من تفكيره وشروده صوت يناديه باسمه من خارج الغرفة، ففتح الباب ولكنْ ياللهول!!! مَنْ هذا؟ لأول مرة يدخل الرعب قلبه ويصفر لونه ويشعر أن روحه تكاد أن تفارقه، إنه المرحوم الحاج مصطفى بشحمه ولحمه بهندامه كاملا، وعصاته يُلَوِّح بها أن يدخل إلى الداخل، فرجع بهلول إلى الخلف وهو يقرأ شيئًا من القرآن ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ولكنْ ضحكات المرحوم وكلماته الظاهرة الجَلية التى دخلت أذنيه جعلته يستعيد توازنه وأخذ ينظر إليه بعيون يملأها الدهشة، ثم راح يعانقه.

جلس بهلول مُسْندًا ظهره على جدار الجمعية الزراعية يفكر فيما حدث حتى شعر باهتزاز الهاتف المحمول الذي أعطاه سمير له ويخبئه بين طيات ملابسه، فقام من مكانه وأخذ ينظر حوله فإذا بفتي من فتيان القرية الذين يتباهون بقوتهم يريد مناوشته وإجباره على التحدث معه، هنا أدرك بهلول أن هذه هي اللحظة المناسبة، فما كان منه إلا وأن دفعه دفعة قوية فطار على إثْرها الفتي ووقع على الأرض، ثم قام وهو يُلْعن ويسب بهلول على هذا التصرف البغيض، وسط ذهول واندهاش لفيف من البشر تجمعوا على صوت الفتى، وأخذت الأخبار تتناقل من مكان إلى مكان كيف تغلب بهلول على الفتى بدفعة واحدة.؟ هذه أول مرة يقوم بهلول بالتعرض لأحد.

وفي مكان آخر في الجهة الأخرى من القرية، وفي نفس التوقيت كان هناك بهلول آخر يقوم بإشعال النار في كومة من القش والخشب في عرض الطريق وأخذ يرقص حولها ويضع كيزان الذرة محدثا جلبة، وينادي الأطفال بصوت مرتفع كي يوزع عليهم الذرة المشوية، وانقسمت القرية إلى نصفين وأصبحت الأقوال متضاربة غير مصدقة كيف يتواجد إنسان في مكانين مختلفين في نفس التوقيت.؟ من رأوه عند الجمعية الزراعية يقسمون أنهم رأوه في نفس الدقيقة والساعة.. ومن رأوه حول النار يقسمون أيضا أنهم قد أخذوا منه ذرة مشوية في نفس التوقيت، وباتت الحيرة مسيطرة على نفوس أهل القرية هل بهلول "مخاوي "؟هل له قرين من الجن أو العفاريت؟.. والعجب كل العجب أنه قد تكررت رؤية بهلول وقرينه في أماكن مختلفة وأصبح الناس يتكلمون في كل مجلس أو مناسبة عن كرامات بهلول، وكما يحدث في أي مكان من سَرَيَان الإشاعات ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد أشاعوا أنهم رأوا بهلولا في خمس أماكن في وقت واحد، كيف ينسخ إنسان من

نفسه خمس صور متشابهه في نفس التوقيت إلا أن يكون ولي من أولياء الله خارق للعادة، وعندما يتكلمون معه لا يذكر إلا عبارة واحدة بحروفه المتلعثمة.. " لك يوم يا ظالم... قريب.. يومك قريب "، وفي يوم وليلة جعلوا منه رجلاً مبروكًا بعدما كانوا يستهزئون به ويضحكون من حروفه المتلعثمة وكلماته الغامضة وعرجة رجله الظاهرة. و لم تمر أيام وقد أجمع أهل القرية أن بهلولا ما هو إلا رجلاً من أهل الخطوة المباركين عند الرب. فنظروا إليه بمنظور آخر غير الذي كانوا يتعاملون به معه؛ فأقاموا له الولائم يدعونه إليها ويرجونه أن يستغفر لهم ويباركهم ويدعو لهم، لِمَ لا وهم يعرفونه منذ صغره لم يؤذ أحدا، ولم يضرب حيوانًا بل كان خدومًا مساعدًا لكل نساء وأطفال القرية، فأصبح من أولياء الله وهذه أولى الشواهد على ذلك....
أما هذا الغريب الذي أتى إليهم فقد زهدوا فيه وفي خدماته بعدما أصبح من خدام العمدة وشيخ خفره، ورأوا طمعه ووعوده التي لم تتحقق قط، فامتنعوا عن الذهاب إليه وكذلك باقي القرى المجاورة وفي أيام قلائل أصبح عودة بلا عمل في القرية.

نادى عودة بصوته الأجش على صبيه حشاد الذي أتى مسرعًا؛ فوقف أمامه مُطَأْطِئ الرأس قائلا:

- أمر مولانا.

فرفع عودة حاجبه الأيسر وأصبح وجهه مثل الشيطان وزفر زفرة قوية، وقال له زاجرًا إياه:

- أرى أنك قد أصبحت لا فائدة منك، فقط تأكل بنهم وتسرق من أموالى ولا أرى أيًّا من الزبائن، أين الناس؟ أين المريدون؟

ففَغَر حشاد فاه ووضعها في نفسه، ثم قال له وهو يرسم على وجهه خجلًا

- يا مولانا إني أذهب إلى التجمعات، وأذِيع في الناس عن بركاتك وأسرارك وقدرتك على فعل الأعاجيب، ولكن لا أجد مستمع إلي لقد صَمَّ الناس آذانهم عني، وقد تجمعوا حول شيخ أخر اسمه بهلول، من أهل القرية، يرمون تحت قدميه بالأموال والهِبَات والأعجب من ذلك فهو لا يأخذ منهم مالاً أو هباتٍ، حَكَّ عودة ذقنه قائلا:
- ومَن بهلول هذا؟ لم أسمع به قبل ذلك؟

فرد حشاد قائلاً:

- إنهم يقولون أنه من أصحاب الخطوة، فهم يقسمون أنهم رأوه في مكانين مختلفين في نفس التوقيت بل أكثر من مكان.

ثم نظر إلى سيده وكأنه يستهزئ بقدراته وأكمل:

- وهوليس ممن يحضرون الجن.

فرد عليه عودة وكاد الشرر يتطاير من عينيه وجسمه كله يهتز:

- ماذا تقول يا أبله، أتشكك في قدراتى الآن يا ابن الملاعين سوف أوريك ما لا تحتمله..، أُغْرب عن وجهي يا وجه القرد.

انصرف حشاد وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة ومعترضا على إهانة عودة له.. كيف يهينه وهو من قام بخدمته زمنا طويلا.. وتحمل عنه

الكثير.. إن الفضل والنعم التي يسبح فيها هو من أتاحها له.. الآن يسبه ويطرده!.. ثم أخذ يتوعده في نفسه حتى اختفى من أمام ناظريه..

تتوالى الأخبار إلى سلامة الغنيمي بما يحدث في القرية.. فهو يعلم جيدا ماذا سيصيبه إن كان صحيحا ما يعتقدونه هؤلاء الناس الذين يصدقون أي شائعه بل يبنون عليها جبالا من الحقائق الواهية حتى تصير واقعا ملموسا يكون في لحظات مصيرا لحياتهم ومنهاجا يسيرون عليه.. إن كان بهلولا من أولياء الله الصالحين ومكشوف عنه الحجب كما يقولون فسوف يكشف المستور وسيصبحون عرايا أمام البشر.. وشعر أن الدائرة تحكم إغلاقها حول رقبته ولكن جبروت الملك يعطيه شيئا من القوة النفسية المزعومة فيقول لنفسه.. لماذا أشعر بالخوف.. إنني الملك هنا.. ولي أمرهم يأتمرون بأمري ويحولون أحلامي إلى حقيقة... فأنا سيدهم وسيد أبائهم.. لا يجرؤ أحد أن يتنفس إلا بعد أن آذن له أن يتنفس.. فعليهم دائما السمع والطاعة.. وإلا قد يصيبهم منى مالا يحمدون عقباه... ابعد هذه الوساوس عن رأسك يا سلامة.. فكل شيئ كما خططت له يسير بانتظام.... وتناول التليفون واتصل بإبراهيم التهامي الذي أتى مسرعا.. وقد شعر بهموم العالم تظهر مرة واحدة على وجه العمدة. فكادت السعادة تكشف دواخله الخبيثة فرسم على وجهه الإهتمام لحال العمدة.. وبادره بالكلام..

- سمعا وطاعة يا كبيرنا. مالي أراك اليوم مهموما.. فداك نفسي يا عمدتنا المبجل.. ثم نظر بعينه الثعلبية ليرى ما وقع كلامه على

العمدة.. لكن العمدة كان في عالم آخر.. وانتبه إلى وجود ابراهيم فبادره بغضب..

- أين انت يا رجل؟.. أصبحت تختفي كلما احتجت إليك..

فنظر إبراهيم إليه وهو يرسم مظاهر الألم على محياه:..

- إننى أمر بوعكة صحية كبيرة أقعدتني في البيت. ولقد ذهبت إلى المدينة لمراجعة الطبيب..

فتذكر العمدة كلمات ابنه فرد عليه بطريقة غريبة يملؤها الشك والريبة:

- الطبيب أم المديرية؟.. أم إنك تتخيل أنني نائم هنا على أذني ولن أعرف شيئا.. فتلجلج ابراهيم قليلا ثم تماسك. وقال:
- مالذي يجعلنى أذهب إلى المديرية يا جناب العمدة؟.. أرى إنك لا تصدقني.

ثم أخرج من جيبة ورقة مطوية وقال له:

- هاك روشتة الطبيب وبالتاريخ الذي ذهبت فيه

لم ينظر العمدة إلى الورقة فقد كانت حكاية بهلول تحتل جل اهتمامه وأرجأ موضوع المديرية جانبا... في هذه اللحظة دخل الخفير المكلف بالحراسة على بوابة الدوار. يطلب السماح لمثول حشاد بين يدي العمدة في أمر هام.. فنظر إبراهيم إلى باب القاعة وقد توجس شرا في الأفق.. وأخذ يحدث نفسه سريعا.. ما علاقة حشاد بالعمدة؟.. ولماذا يريد المثول بين يديه.. ثم أفاق على صوت العمدة وهو يقول:

- دعه يدخل

ونظر إلى ابراهيم متسائلا..

- ماذا يريد صبي الدجال هذا..

بعد دقيقة دخل الخفير مرة أخرى وهو يقول للعمدة:

- خرجت كي أناديه فوجدته ذهب وليس له أثر..

فسكت العمدة قليلا ثم وجه الحديث إلى ابراهيم قائلا:

- ما فائدة هذا الدجال المسمى عودة.. هل هو نائم على أذنيه. كيف يظهر بهلول على أنه ولي من أولياء الله وهو لا يعلم شيئا.. أين الكرامات والأعاجيب التى كانوا يتشدقون بها.
- فتنحنح التهامي وقال:
- وما دخل عودة بالموضوع يا جناب العمدة

بينما سلامة يكمل كلامه متعجبا:

- ماذا يحدث فيك يا بلد! بهلول! بهلول يصبح صاحب كرامات وخطوة والناس يرفعونه على الأعناق.. ماذا ستفعل في هذا الشأن يا شيخ الخفر... أريدك أن تقضي على بهلول في أسرع وقت..

فاندهش التهامي من هلع العمدة واصراره في القضاء على شخص كان بالامس ليس له وزن أو شخصية وليس منه خوف أو أهمية... وقال في نفسه.. ماذا تخفي عني يا ابن الغنيمي؟. أراك تعاني من إحدى مصائبك الخفية التي قد ظهرت على السطح.. ولكن ما دخل بهلول بقلقك.... فرد ابراهيم وهو يظهر الإهتمام:

- يا جناب العمدة... إنه ولد أهبل لا يفقه شيئا.. وهذه القرية هي التي تعظم الأمور وتسير الشائعات وخاصة فيما يتعلق بالأسياد والأشباح..

فاستشاط الغنيمي غضبا وقال:

- - إنك لا تعرف شيئا.. الخوف كل الخوف من هذا الأهبل الذي تتكلم عليه.. فقد يفعل أي شيئ ولن يأخذ أحد عليه مأخذ.. بحجة أنه مصاب بالخبل والهبل.. فاخذ ابراهيم يهدئ من روع العمدة وداخله كله يرقص من رؤيته في هذه الحالة ثم قال له مطمئنا:
- دعه يفرح قليلا مع أهل القرية.. ثم نسحبه بعد ذلك من المشهد.. وإذا حدث له شيئا فسوف تشير كل الأصابع إلى عودة.. وسنذيع في كل القرية بأن عودة قد تخلص من بهلول حسدا منه وانتقاما وبذلك نتخلص منهم جميعا.

استراح العمدة لهذا التدبير ثم قال له..

- الآن عدت من جديد. إحدى دواهي الزمن..

فقهقه ابراهيم ثم قام منصرفا بعد أن حيا العمدة... ولكن قبل أن يغادر دوار العمدة لم يفت عليه أن يسأل الخفير عما قاله حشاد له.. فقال له لقد سأل عن جنابك إذا كنت عند العمدة وقد ابلغته أنك موجود.

انصرف شيخ الخفر ولكن الأسئلة كان تدور في عقله كطاحونة الهواء بسرعة شديدة وقلق بالغ.... لماذا أتى حشاد إلى العمدة؟ ولماذا ذهب عندما علم بوجودي؟ هل قرر عودة أن يتخلص مني و يبيعني ويأخذ الثمن من سلامة الغنيمي.. كيف علم العمدة بموضوع المديرية.. ولم

يعلم أحد بهذا الموضوع غير عودة.. إن كان هذا صحيحا فسوف أنتقم منهم جميعا.. إنهم لا يعرفون من أنا.. وبات ليلته يتقلب هو الآخر في فراشه وقد جافاه النعاس. وكأن المصائب قد تجمعت كي تصب على رأس التهامي وتذيقه شيئا مما كان يفعله في الآمنين من أهل القرية. إذ بصوت ينادي عليه من خارج البيت فيه من الخوف والهلع ما يميزه وطرقات قوية وسريعة على البوابة الخارجية.. فنظر ابراهيم إلى الساعة المعلقة على الحائط وقال في نفسه من هذا الذي يطرق بابه وينادي عليه في هذه الساعة المتأخرة من الليل.. فسحب بندقيته ووضع العباءة على كتفيه ونادى من خلف الباب:

- من الطارق..
- فسمع الصوت يناديه بخوف وعصبية:
- افتح يا ابراهيم بك.. أنا عوض المنسي..

توقف عقل ابراهيم عن العمل فجأة ثم عاد بسؤال شغوف ماذا أتى بعوض أفندى موظف الجمعية الزراعية في هذه الساعة.. ففتح البوابة الحديدية الكبيرة ودخل عوض وهو يرتجف بشدة وصوت أسنانه تصطك ببعضها وكأنه قد أصابته حمى شديدة ويتكلم بسرعة:

- انقذني يا إبراهيم بك.. سوف أموت من الخوف والرعب.. لقد رأيته. أجل لقد رأيته وسمعته كما أراك وأسمعك الآن..

لم يفهم ابراهيم منه شيئا.. وقال له وهو يزجره..

- اهدأ يا رجل.. ماذا بك؟ افهمنى الموضوع بهدوء.. ماذا رأيت بالضبط ومن هو
- لقد رأيت الزيان..

- وما في هذا قد يرعبك.. إن سمير الزيان يسافر ويعود ويسافر وليس منه أي خوف.. تماسك كيلا تفضح نفسك وتفضحنا..

فرد عوض بنفس حالته التى هو عليها..

- يا ابراهيم بك لقد رأيت الحاج مصطفى الزيان.. ناداني بصوته الجهوري الذي لا يخطئه أحد ففتحت النافذة ونظرت لمصدر الصوت فإذا به بشحمه ولحمه وعباءته. ولوح لي بعصاته التي أعرفها جيدا.. وقال لي: خاف الله.. إن مصيرك قد اقترب. ثم اختفي في ظلال الدار التى وقف بجانبها.. ووجدت ساقي تسارع الريح إلى دارك

قهقه ابراهيم متصنعا التماسك وقال لعوض..

- يالك من ساذج.. هل شربت شيئا قبل النوم.. إنك كنت تحلم يا رجل أين الآن مصطفى الزيان.. لقد أكله الدود وانتهى أمره. ارجع إلى بيتك ولا تخبر أحدا بهذه الخرافة.. ونم قرير العين واحذر من التفوه بشيئ وإلا فإنك تعلم مصيرك..

عاد إبراهيم إلى فراشه وتحسس بندقيته بعدما شعر برعشة قد سرت في جسده.. وقال بصوت مسموع: يالها من قرية جبانة يصدقون فيها كل الخرافات. وألقى بجسده على سريره.... ولكن هيهات.. لقد حل الأرق والتفكير مكان النعاس وظل يتقلب في فراشه حتى الصباح.. أما عوض كان يسير وهو يشعر أن أحدا يلاحقه فينظر خلفه بسرعة فلا يجد إلا الأضواء الصفراء الباهتة التى تعكس ظلال الدور على الأرض فتشعر بأن خلف كل دار هناك يتربص شبح لينقض على من يسير في هذا الوقت من الليل.. وظل هذا الشعور يلازمه حتى أغلق عليه بابه ثم

ذهب إلى غرفته سريعا ووقف خلف دلفة النافذه ينظر إلى نفس المكان.. فوجد ما قد أفزعه أكثر وكأنه كان ينتظره ولكن هذه المرة يتوعده بقبضة يده فأغلق النافذة سريعا وجسده كأنما تعرض لصدمة كهربائية عالية سقط على إثرها مغشيا عليه...

اللقاء بين عودة وابراهيم التهامي أصبح مشحونا بالشك والريبة وتبادل الإتهامات فعودة يقسم له بأنه لم ينبت ببنة شفة لأحد عما يدور بينهما.. ولكن ابراهيم يصر على اتهامه متعللا بمعرفة العمدة بموضوع المديرية.. وأخذ يكيل له السباب والشتائم وأنه ليس له منفعة غير الإستيلاء على الأموال فقط.. وأخذ يهدده بأنه سوف يتخلص منه برصاصة من بندقيته إذا تيقن من الصلة التى بينه وبين العمدة.. ولن يردعه حينذاك عفاريته ولا ملوك الجن بأنفسهم.. ضحك عودة وأخذ يهدئ من ثورة ابراهيم عليه وقال له:

- يا ابراهيم بيك.. كيف أخونك وأنت ولى نعمتى هنا وحامى وجودى وعملى. نحن في سلسلة واحدة.. أنسيت مشوارنا معا وما أتممناه. أرى أننى لم أتقاعص في شيئ قد طلبته مني.. لقد خلصتك من عبد العال أفندي على يد حشاد.. وبتخطيطي وضعت المهندس محمود السجن وتخلصنا من الشوكة التي كانت في ظهرك.

فقاطعه ابراهيم قائلا:

- وماذا كان يفعل صبيك عند العمدة إذن؟

فنفى عودة معرفته بالأمر.. وقال له:

- لقد عنفته وسببته لتقصيره في عمله.. لقد مر أسبوع الآن ولم يدخل عليّ مريد واحد.. ولا أدرى أين هو الآن.

ثم قدم كوبا من الشاي إلى ابراهيم قائلا..

- اشرب اشرب يا رجل ودعك من هذه الوساوس.. لقد اشتقنا لسهراتك البديعة... فأخذ ابراهيم الكوب من يديه وقبل أن يرتشف منه قال له عودة مستفسرا:
- من هذا المسمى بهلول؟ لقد أصاب تجارتي بالكساد. أنا الآن الذي أريد منك شيئا.. أريدك أن تتخلص منه؟

ضحك ابراهيم حتى ظهرت أسنانه الصفراء.. وقال ساخرا..

- مابالكم يا سادة.. انت والعمدة تطلبان نفس الطلب..

فقال له عودة..

- أنا طلبي واضح ومسبب.. أما العمدة فلماذا يريد التخلص منه؟

اعتدل ابراهيم في جلسته ورشف من الكوب رشفة طويله وقال له:

- إنى اشك أن العمدة قد ارتكب جرما في حق هذا المسكين.. ولكن ماهو.. لا أدري..

فنظر إليه عودة بنظرة فاحصة ثم ناوله الشيشة فشد التهامي نفسا طويلا وأخرجه من أنفه. باتت الغرفة على أثر دخانه كالضباب وظل هكذا حتى شعر أن الأرض تميد من تحته وأن جدران الغرفة تدور به سريعا وهو الذي لم يتأثر أبدا من مفعول المخدرات وكأنه يغيب عن الوعي.. فنظر إلى عودة الذي كان يقهقه عاليا فوجده أصبح خمسين عودة بينما تظهر أسنانه الذهبية اللامعة كأسنان ذئب شرس يريد أن ينقض على فريسته. فأخذ ابراهيم يضرب الهواء بيديه ويريد أن يمسك برقبته عودة ويعتصرها ولكن هيهات فيديه كأنها أصبحت قصيرة جدا لا تستطيع الوصول إليه حتى شعر أن روحه تسحب منه وتذهب إلى عالم آخر بينما صوت ضحكات عودة تزلزل أعماقه. فتحامل على نفسه وشق طريقه إلى الخارج بينما عوده يمسك بجلبابه يطلب منه أن يبيت عنده الليلة.. ولكن ابراهيم أزاح يده بعصبية واتجه إلى الباب وهو يترنح الأحداث تتوالى سريعا.. والشائعات تسري في القرية مسرى النار في الهشيم.. لقد أصيب ابراهيم التهامي بمس من الجنون.. بعدما وجدوه ملقى على قارعة الطريق مغشيا عليه.. وتم نقله إلى بيته وقد ظن البعض أنه مات لم يبك عليه أحد إلا زوجاته الأربع ولم يهدأن إلا بعدما تأكدن أنه مجرد إغماء.. كان العمدة ونفر من أهل القرية يزورونه فلم يشعر بهم أبدا.. بل لم يفق من غيبوبته وكان وجود الشيخ بهلول بجواره مذ نقله إلى بيته الأثر الكبير في نفوس زوجاته فقد تعيده بركات الشيخ بهلول إلى وعيه مرة أخرى وعندما أفاق بعد بضعة أيام وقد وظهر عليه الهزال ووجد بهلول يجلس تحت قدميه ويفرك له رجليه ويتمتم بعبارات غير مفهومة كأنه يدعو له بالشفاء.. فاجتاحته مشاعر متضاربة وتذكر العهود التي أخذها على نفسه. فمد يده إلى بهلول وقال له:

- سامحنى يا بهلول.. لقد أتفقت على أن أتخلص منك وأنت تجلس تحت قدمي وتدلكهما.. يالك من إنسان طيب.. إن العمدة وعودة الكلب يريدان أن يتخلصا منك. ولكن هذا لن يحدث أبدا..

في هذه اللحظة كان صوت زغاريد زوجاته خلف الباب عندما سمعن صوته.. فزجرهن وأمرهن بالذهاب إلى الداخل فورا..

لم تمض دقائق إذا بصوت حشاد خارج الباب يطلب أن يدخل عليه.. كانت الدهشة تعلو وجه ابراهيم من هذه المفاجأة الغير متوقعة.. فأذن له سريعا لعله يجد إجابة للسؤال الذي يضج به رأسه.. فدخل حشاد وهو خائف يلتفت يمينا وشمالا كأنه هارب من شيئ ما ويضع يده على حلقة ويخرج صوته بصعوبة.. وقال لإبراهيم بسرعة..

- سامحنى يا ابراهيم بك.. حاولت أن اصل إليك ولكن دون جدوى فالكل يطاردني... فقال له ابراهيم بصوت ضعيف:
- ماذا وراءك يا حشاد.. ومن يطاردك؟

فقال حشاد كأنه يهمس:

- لا عليك الآن إنما جئت كي أنبهك لشيئ هام

كان الوهن ظاهرا على وجه ابراهيم وجسده.. فاعتدل ببطء في جلسته ونظر إلى حشاد يستحثه في الكلام بعدما أخذ به القلق مأخذا كبيرا:

- إن عودة قد دس لك شيئا في الشاي الذي شربته..
- شيئ؟ وما هذا الشيئ؟ وما أدراك بهذا وأنت لم تكن موجودا؟

فأكمل حشاد بصوته المحشرج:

- لقد حبسني في الغرفة المجاورة عند قدومك له ولقد رأيته من فتحة النافذه الداخليه المطله على القاعة..

فارتعد ابراهيم قائلا:

- ولماذا يدس لي عودة شيئا في الشاي..

فقال حشاد:

- إنه يريد أن يتخلص منك بناء على طلب العمدة وهذا كان سبب ذهابي برسالة إلى العمدة.. وعندما وجدتك لم أجرؤ أن أدخل.

فقال له ابراهيم وجسده كله يهتزمن الغضب: وماذا دس لي هذا الملعون.؟ قال حشاد بطريقة العالم للأمور..

- إنه شيئ يسبب لك الوفاة بسرعة....

لم يتمالك ابراهيم نفسه وكأنما قد تعرض للدغة ثعبان وأخذ يسب ويلعن.. بينما حشاد قد اختفى من أمامه. ثم نظر إلى بهلول وقد نسي مافعله بهلول للتو معه وأخذ يصرخ ويتكلم بصوت عال جعل من في البيت يحضرون بسرعة لمعرفة ماحدث:

- كلكم كلاب وملاعين.. كلكم ملاعين.. لن يهزمني أحد وسوف أدمركم جميعا أغرب عن وجهى يا معتوه. أنا ابراهيم التهامي يا غجر...

وفي قمة ثورته وكلماته التي يتوعد فيها كل الناسر كان بهلول يرمقه بنظرة ذات معنى وظل ابتسامة على شفتيه وانصرف بهدوء بعدما أتم مهمته.

استمرعوض المنسي في حالة الرعب والقلق.. فعفريت الزيان يتربص به كل ليلة الآن.. ويحرمه النوم.. ويخشى أن يحدث أحد بذلك خوفا من ابراهيم التهامي وألاعيبه فبات يرتعد من كل شيء يتحرك ومن كل صوت حتى صوت أهله.. وحبس نفسه في غرفة مغلقة النوافذ لأيام حتى كاد أن يصيبه الجنون. ومما زاد من رعبه هو صوت بهلول المرتفع وهو يدور في الحواري وشوارع القرية الضيقة ويردد بطريقته المتلعثمة " لك يوم يا ظالم " لم يتحمل أكثر من هذا. حتى وجد نفسه يتسلل في جنح الليل خوفا من أحد يراه حتى وقف أمام عصام السعدني ضابط النقطة في القرية المجاورة يرجوه ويسترحمه أن يقبض عليه ويدعه الزنزانة بعيدا عن هذا الجحيم الذي يعيش فيه. تعجب الضابط من هذه المفاجأة.. ثم أفرد له الوقت وأمر نائبه بتسجيل اعترافه. ثم أدلى بكل أقواله واعترافاته التى أخرجت المهندس محمود في نفس اللحظة من التهمة الموجهه إليه وبرأت ساحة المرحوم مصطفى الزيان من تهمة السرقة المزعومة.... ولكن محمود لم يخرج من الزنزانة... ماذا ينتظر؟

أصبح العمدة كالغريق برغم جبروته المصطنع بعدما تركه ابنه في هذه الحالة. وشعوره بتنكر ابراهيم التهامي له.. وحرصه على الإنتهاء منه وقد أيقن أن هذا الذئب لا يكتفي بقطعة لحم.. بل يريد الجسد كله ينهشه بتلذذ.. نعم إنه يريد جسدي وممتلكاتي ومنصبي.. هكذا وضح من أسلوبه وطرقه الملتوية. بالرغم من إغداقي عليه من النعم التي لم يحلم أن يرفل فيها أبدا. ودخل في روعه لأول مرة أن نهايته قد اقتربت وأن الإنهيار قادم لا محالة وباتت أسلحته قد أصابها الوهن والعجز.. وأيقن أن وفاة صديقه اللدود مصطفى الزيان ليست بداية الإنتعاش والقوة والتفرد في حكم هذه القرية بل هي بداية النهاية لطمعه وظلمه وحكمه الغاشم.. إن وجود صوت كصوت مصطفى الزيان يرده عن كل فعل يقوم به كصوت الضمير الذي كان يتغلب عليه أحيانا ويرده عن ظلمه.. فيجعله يقوم ثانيا ليحاول أن يكسب جولة أخرى مستخدما كل اساليبه الملتوية بمساعدة هذا الثعبان المسمى ابراهيم التهامي.... لقد انتهت السعادة بانتهاء الخصم.. وأصبحت الحياة ليس لها معنى... وكأننا خلقنا كى نتحدى من هم مثلنا او أجدر منا... هذه هي طعم الحياة لا العيش في وسط قطيع من الأغنام يتحركون بإشارة من عصا الراعي.. وأيقن أن يوم الحساب قد أزف والحقيقة تضج من مكمنها السحيق.. وهذا اليوم الذي ينادي به بهلول في شوارع القرية أصبح على الأبواب.. وأصبح الظالم يتحسس رقبته ويوقن أنه هو المقصود بكلام معتوه القرية وبهلولها..

في أول ضوء للصباح كان ابراهيم التهامي يستقل سيارته إلى المدينة وعلى أبواب العيادة الخاصة لطبيب مشهور في المدينة كان القلق يعتصره حتى حضر الطبيب الساعة التاسعة. وبعد الكشف عليه كان الوجوم على وجه الطبيب ينبئ بأن هناك شيئا غير مريح في التشخيص الأولي لحالته.. فأمره بالذهاب فورا إلى المستشفى العام وسوف يتابعه من هناك لان حالته لا تسمح بالتأجيل ثم رفع سماعة التليفون وتكلم بكلمات انجليزية ثم أعقبها بكلمات قاطعة

- جهزوه للتحاليل فورا

ثم وجه كلامه للتهامي الذي أصبح وجهه كوجه الموتي ليس فيه أي حياة.

- اذهب الآن بسرعة. إنهم ينتظرونك وسيعملون اللازم.

شعر التهامي فجأة أن ساقيه لا تحملانه وأن جسده بدأ يخور منه فاستند على الجدار وأخذ يتحرك ببطء حتى خرج من العيادة ورمى نفسه على أول كرسي قابله حتى يسترد قليلا من أنفاسه الهاربة. حتى وصل إلى سيارته وهو يظن أنه لا يقوى على قيادتها.. وما إن وصل إلى المستشفى تلقفته أيدي الممرضات وذهبوا به سريعا إلى غرفة معزولة وهم يرددون أمامه أوامر الطبيب وعلقوا في يديه المحاليل وبدأوا يتعاملون معه بمعاملة خاصة فيها حذر شديد وكأنه مصاب بفيروس قابل للإنتشار ومنعوا عنه الزيارة... استسلم ابراهيم للوضع الراهن ولم ينطق بحرف وقد تأكد تماما من كلمات حشاد التي ترن في أذنيه الآن وتنبئه بنهايته المحتمة وهو يحاول أن يتعلق بأوهن خيوط الأمل حتى أيقن أنه هالك لا محالة... وبعد الإنتهاء من التحاليل. تم عرضها على

الطبيب المشرف على مرضه فكان رأيه القاطع الصادم والقاتل لآخر أمل عنده:

- يا حاج ابراهيم.. أنا لا أجزم بشيء غير الذي أمامي.. إن نتيجة التحليل تؤكد بأنه ليس أمامنا الكثير من الوقت.. وأن الأعمار بيد الله.. قد يكون انتظارنا للموت رحمة وفرصة أخيرة كي نعمل الخير الذي يعيننا على آخرتنا ونكثر من الإستغفار ونتوب إلى الله عما أذنبنا فيه عل الله أن يغفر لنا ويتوب علينا وانصحك أن تحضر سائقا كي يوصلك إلى قريتك فإنك لن تقوى على القيادة.. جلس ابراهيم في غرفته منكس الرأس صامتا لا يتفوه بكلمة واحدة... ولكن كانت هناك حسرة تنهش قلبه وأعماقه.. أهكذا ينتهى ابراهيم التهامي في لحظة.. وبسبب من؟ بسبب دجال هو الذي أحضره إلى القرية.. لقد أحضرت شرا إلى القرية.. فكبر الشر وتوغل حتى التهمنى... إن أول عمل من أعمال الخير التي سوف أعملها في الأيام القليلة الباقية من حياتي سوف أخلص القرية من الشر الذي قد جلبته إليها.. سوف أقتل هذا الدجال ولو كان هذا العمل هو الأخير قبل الوفاة..

في اليوم التالي خرج منهارا يستند إلى كتف شاب من شباب القرية أتي خصيصا كي يعود به فأجلسه في المقعد الخلفي. كان جل ما يفكر فيه الآن كيف يكفر عن أخطائه.. إنه سوف يقابل ربه فكيف يذهب إليه بكل هذه الذنوب.. ولكن ماذا يفعل.. إنه لم يعمل لمثل هذا اليوم ولم يفكر أبدا أن نهايته سوف تكون سريعا. يالها من حياة قصيرة كنت أحسبها ممتدة مليئة بنعيم الدنيا.. لم أنجز فيها شيئا غير بضع فدادين من الأرض وبعض الأموال.. أين الأمبراطورية التي كنت أحلم بتأسيسها.. وأين

منصب العمدة الذي خططت كي استولي عليه... ولم يشعر إلا بدموع الندم تنساب على وجنتيه.. كانت السيارة عائدة إلى القرية وقد أسند التهامي رأسه على المقعد الخلفي وأغمض عينيه.. وعلى مشارف القرية توقفت السيارة فجاة بعدما اعترضها رجلان قويان من ملابسهما عرف إبراهيم أنهم غرباء وفتحت الأبواب الخلفية ودخل كل رجل بابا وحاصرا إبراهيم بينهما.. انتبه إبراهيم لهذين الرجلين وحاول أن يعترض على تصرفهما. ولكن كلمة واحدة قد أسكتته.. عندما تكلم أحدهما بصرامة إلى السائق أن يتوجه بهما إلى دوار العمدة.

كانت القرية خارجة عن بكرة أبيهم يقفون أمام الدوار.. بينما العديد من سيارات الشرطة والجنود يطوقون القرية.. ماذا يحدث؟ ولما كل هذه الحشود.. اقتاده الرجلان إلى داخل القاعة الكبيرة ولهول ما رأى.. لقد كانت القاعة تشبه كثيرا قاعة المحكمة.. كان يتصدر المشهد رجل له هيبته بشعره الأبيض وزيه العسكري وكان برتبة لواء بينما يجلس على جانبيه رجلان برتب أقل وبجوارهما وكيل النيابة.... وفي الجانبين العديد من ضباط الشرطة الذين يملؤون جوانب القاعة يتوسطهم الضابط عصام السعدني و في منتصف القاعة كان كل من. حشاد وعوض المنسي ومختار يجلسون إلى الأرض وأيديهم مكبلة خلفهم.. بينما العمدة قد جلس على كرسي صغير خلفهم وهو منكس الرأس.... فانهار التهامي وبدأت الرعشة تجتاح جسده وأخذ يصرخ ويتكلم بصوت عال:

- اتركوني يجب أغتسل من ذنوبي أولا.. أتركوني كي أزيل الشر الذي كنت السبب فيه. وأخذ يشير إلى العمدة وإلى مختار... ويردد وهو يبكي:

- هؤلاء هما السبب هما أساس كل الشرور.. أنا رجل مسكين أنا مجرد أداة بأيدهم.. لماذا تمسكون بي.. أنا بريئ. أنا رجل ميت ثم أخذ يهلوث بصوت عال ثم يضحك.. وينظر إلى الضباط ثم يبكي قائلا
- أنا مقطوع من شجرة. ليس لى ظهر.. ما عندي أحد يدافع عني ثم أخذ يدور بعينيه بهستريا واضحة في المكان كأنه يبحث عن أحد ما.. ولكنه لم يجده.. فصرخ ووجه كلامه للضباط الملتفين حوله:
- أين هو؟... أين هو؟.. لماذا لم تمسكوا به؟.. أدركوه.. لماذا هو غير موجود؟.. إنه سبب شقائي.. بل شقاء الجميع أين هذا الشر المتحرك في جسده وشخصه.. أين عودة الكذاب المجرم

صاح في وجهه الضابط عصام بقوة قائلا:

- اسكت ولا تتكلم قبل أن يأذن لك أحد.

فسكت ثم أجلسه أحد الرجال بشدة إلى الأرض وقد تحكم في حركته.

في هذه اللحظة كان بهلول يشق صفوف المتجمهرين كي يصل إلى باب القاعة الرئيسية للدوار فإذا بأحد العسكر ينهره ويبعده عن الباب ولكن صوت عصام السعدني جعله يدخل حتى وقف أمام العمدة الذي كان يجلس على كرسي صغير مطأطئ الرأس بينما بهلول ينظر إليه بنظرات صارمة قد جعلت العمدة يزداد خوفا وهلعا بالرغم من وجود رجال الشرطة. وتوقع أن ينهال عليه ضربا أو طعنا في أي لحظة... وتذكر جريمته المنكرة عندما خطط لاغتيال والدي بهلول في القطار والاستيلاء على ممتلكاتهما. فقال له الضابط:

- تعال هنا يا بهلول وقف بجوارنا.

في هذه اللحظة سمع الجمع أصوات جلبة وتكبيرات تصم الآذان.. إن المعجزة تتكرر الآن وفى نفس المكان وأمام كل هذا الحشد.. إنه بهلول جاء ثانيا يريد أن يدخل إلى دوار العمدة وهو الذي قد دخل منذ قليل وقد رآه كل الواقفين أمام الدوار.. إن الناس تكاد أن تجن.. فاوسعوا له الطريق وأيديهم تتمسح بكتفيه وهو يشق الجموع متجها إلى الداخل في هذه اللحظة كان الجندى المكلف بحراسة الباب لا يختلف كثيرا عن أهل القرية. وأخذ يفرك عينيه بيديه وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. ولم يسعه إلا أن يفتح الباب صامتا... في هذه اللحظة كانت الأعين شاخصة إلى هذه المعجزة. وخاصة العمدة وشيخ الخفر. فوقف الضابط ثم أشار لبهلول الآخر أن يقف بجوار قرينه.. ثم قال موجهها كلامه إلى وكيل النيابه:

- هكذا يا فندم قد أوقعنا بعصبة الشر هذه بعد تخطيط استلزم منا ثلاثة شهور كاملة.. ثم أشار لبهلول الذي دخل عليهم ثانيا فمد يديه إلى رقبته وانتزع جلد وجهه أمام الحاضرين.. وكم كانت الصاعقة التي وقعت على رأس الجناة عندما رأوا صاحب الوجه.. إنه سمير الزيان..

أخذ ابراهيم التهامي في الضحك الهستيري وكأنه جن فلم يسكت إلا بعدما سمع صوت ارتطام كف غليظة بوجهه محدثة صوتا عاليا.

فظهور سمير في هذه اللحظة بالذات وبهذا الشكل جعل كل الجناة في رعب وهلع حقيقي وباتت الشكوك تسايرهم.. وكل واحد فيهم يحاول أن

يتذكر.. كم مرة رأى بهلول في الفترة الآخيرة أو مر بجوارهم... وهل الذي كان معهم بهلول أم سمير الزيان.. وأسقط في أيديهم جميعا.

ساد صمت في القاعة للحظات قطعها صوت وكيل النيابة عندما نادى على ابراهيم التهامي. موجها إليه كلمات زادت من حالته.. فقال له:

- يا ابراهيم..هل تعترف باشتراكك في قتل المرحوم الاستاذ عبد العال.. نعم أم لا

فرد ابراهيم قائلا بوهن:

- أنا لن أكذب مرة ثانيا.. فأنا سوف ألقى الله قريبا...

فوكزه مختار بكوعه أن يصمت.. ولكن ابراهيم صاح به.

- لن أسكت على شيئ.. فأنت لم تدر ماذا أحل بي.. أريد أن أكفر عن كل ذنوبي.. نعم لقد اشتركت في قتل عبد العال أفندي بناء على أوامر من مختار الغنيمي والعمدة سلامة الغنيمي إنتقاما من زوجته رجاء الطوخي التى فضلته على مختار الغنيمي
- إحكي لنا كيف؟
- لقد اتفقت مع عودة على أن يتخلص من عبد العال أفندي بطريقته.. فأمر حشاد بعدما أعطاه الكثير من المال كي يقتل عبد العال بحيث تظهر الحادثة قضاء وقدرا..

فرد حشاد بصوت عال:

- لا لا لم أقتل أحدا.. لم أقتل أحدا

فصاح به وكيل النيابة آمرا

- اسكت ولا تتكلم إلا بعد أن أوجه لك السؤال

ثم وجه كلامه إلى ابراهيم:

- أكمل يا ابراهيم
- بعد ذلك كان التخطيط من العمدة أن يكون مختار في هذا الوقت خارج القرية حتى لا تطوله الشبهات.. وقد تم الضغط على طبيب الوحدة بأن يجعل التقرير قضاء وقدرا وتم إنفاذ ذلك بالحرف.
- هل كنت موجود عندما اتفق عودة مع حشاد؟
- نعم كنت موجود وقد أعطاه المال أمام عيني
- ولماذا تعترف بذلك بسهولة.. هل ضغط عليك أحد ما؟
- كلا يا سعادة البيك.. فأنا لن أعيش إلا أياما معدودات. فأريد أن أعترف بكل ذنوبي. عسى الله يرحمنى
- هل عرفت الله الآن فقط بعدما علمت أنك لن تعيش إلا أياما.. وهل يا ترى لو الحياة كانت ممتدة لك.. هل كنت ستغير أقوالك؟

فسكت ابراهيم ونكس رأسه إلى الأرض ولم يتكلم بحرف

وقف أهل القرية ينتظرون بالخارج وهم يترقبون النهاية.. وهم في سعادة ظاهرة. أخيرا سوف يتخلصون من هذا الكابوس الذي جثم على صدورهم سنوات طويلة.. سيتخلصون من هذه الأسرة الحاكمة الظالمة التى امتصت دمائهم لعشرات السنين وهم يرتعون فيها غير عابئين بظلمهم للعباد.. وكان من أشد الناس ترقبا هما الصديقتان فاطمة الزيان ورجاء الطوخي فقد أخذتا جانبا من المشهد فقالت فاطمة وهي تشاهد آثار القلق على وجهها:

- لا تقلقي يا رجاء.. فإن الحق سيظهر اليوم. فهذه هي نهاية الطغاة

نظرت إليها رجاء نظرة تشكك وعدم تصديق

- أخاف أن يخرجوا منها كما يفعلون في كل مرة. فهؤلاء الملاعين لهم آلاف الطرق في الخداع وتشويه الحقائق وقلب الحقيقة إلى وهم كاذب
- لا.. هذه المرة غير كل المرات السابقة.. صدقيني يا أختاه
- ولماذا تثقين هكذا..هل تصدقين أن بركات بهلول وهذا الكلام الفارغ الذين يتناوله أهل القرية هو الذي سيظهر الحق؟

فضحكت فاطمة وقالت لها..

- عندك حق.. ولكن سوف نرى الآن.
- ما يحزنني حقا هو غياب الدكتور سمير عن هذه الأحداث التي تجرى وكأنه لا يعنيه شيئا من الذي حدث لنا جميعا.

فوكزتها فاطمة قائلة:

- دعي سمير في حاله.. فأنت لا تعلمين حالته الآن.. ربنا معك يا أخي

نظرت إليها رجاء الطوخي نظرات كلها غيظ وسكتت. ولكن كان هناك شيئ ما جعل رجاء تشد فاطمة من يدها وتجعلها تنظر خلفها.. فتحت فاطمة ذراعيها عندما رأت زوجها محمود ممسكا بيد أمها وهما مقبلان نحوهما فجرت إليهما وأخذت زوجها بين ذراعيها

بدأ وكيل النيابة باستعراض الأوراق التى أمامه ويفند كل جريمة على حدى.. فهناك ثلاث جرائم.. الأولى سرقة والثانية قتل سرقة. والثالثة قتل وسرقة واتلاف ممتلكات عامة. ولكن الجريمتان الأولى والثانية يشترك فيهما نفس المجرمين تقريبا.. وكان اعتراف ابراهيم المفصل لم يترك الفرصة لأحد في الإنكار حتى العمدة فقد انهار تماما وأقر بكل ماجاء على لسان ابراهيم التهامي وأراد بكل السبل أن ينفي التهمة عن ابنه.. ويتحمل هو ماجاء في الأقوال وتسجيلات النيابة. ولكن النيابة لم تأخذ بأقواله وضمت ابنه ضمن المجرمين. ثم نظر إلى حشاد ووجه إليه السؤال

- يا حشاد.. لماذا قتلت الأستاذ عبد العال؟

رفع حشاد رأسه وهو يحاول أن يتملص من تهمته:

- أنا بريئ يا بيه.. أنا لم أقتل أحد..
- يا حشاد.. لا تراوغ.. فقد اعترف عليك عودة. وأيضا ابراهيم التهامي

ثم أشار إلى أحد الضباط فأدار جهاز تسجيل فسمع كل من في القاعة الحديث الدائر بين عودة وابراهيم التهامي.. فقال حشاد

- هؤلاء الإثنين يكذبون يا بيه.. فأنا لم أقتل أحدا.. أنا رجل مسكين على باب الله أقتات من عطايا المحسنين.. فلماذا أقتل؟
- ألم يأمرك سيدك بقتل الأستاذ عبد العال بناء على طلب شيخ الخفر

- وأين سيدي الآن يا بيه.. واجهوني بـه. وهل لو كنت قتلت عبد العـال أفندي فهل أقتلـه بغير سلاح؟ فـأين السلاح يـا بيـه.. هذه تلفيقة لي كي يخرج منها السادة ويقع فيها الصعاليك أمثالي..

كان تماسك حشاد في الردود على وكيل النيابة قد سبب بعض القلق للضابط عصام.. فهو لم يمسك على حشاد أي دليل ولم يجد سلاح الجريمة.. فنظر إليه وكيل النيابة وقال له:

أين سلاح الجريمة يا حضرة الضابط.. وأين عودة الآن؟.. لماذا لم يتم القبض عليه؟

- لقد أرسلت قوة إلى منزله وسيحضرونه حالا. أما سلاح الجريمة فلم نعثر عليه بعد..

نظر إليهم حشاد وابتسامة خبث ترتسم على شفتيه وأيقن أنه خارج منها بدون اتهام.. طالما لا يوجد دليل عليه..

وفجأة تقدم بهلول إلى وكيل النيابة وأخرج من جلبابه لفافة من القماش ثم قدمها إليه.. نظر إليه وكيل النيابة قائلا:

- ماهذه اللفافة التى قدمتها الآن

في هذه اللحظة تكلم بهلول بلسان فصيح ليس به عوج أو تلعثم.. واسقط في قلب الجناه والحاضرين. وساد القاعة هرج وغمغمات حتى اسكتها وكيل النيابة بخبطة يده على المنضدة.. فالتزم الجميع الصمت

يا حضرة وكيل النيابة.. لقد رأيت...

قاطعه وكيل النيابة وقال له ما اسمك؟

رد عليه بهلول بثبات:

- اسمي سعد محمد خلف. الشهير ببهلول
- احكي لنا يا سعد ماهذه اللفافة وماذا تعرف
- لقد رأيت حشاد يخرج من حقل القصب في الليلة المشئومة وهو لم ينتبه إليّ فمشيت وراءه فوجدته يرمي بهذه اللفافة في الترعة فانتظرت حتى اختفى ونزلت وأحضرتها.. فإذا هي عبارة عن قميص به دماء وهذا الجاكوش وقد وضعت في كيس من البلاستيك وربطت بهذا القماش..
- ولماذا أخفيت هذا الدليل ولماذا لم تتكلم..
- لقد خفت يا فندم من أن يصيبني شيئ قبل أن أصل إلى النقطة.. فإن خفراء العمدة كانوا يسدون المنافذ في تلك الأثناء تحسبا لأي مفاجأة.. فحفرت في غرفتي وأخفيتها حتى يحين أوانها.
- ولماذا تخاف العمدة وأنت لم تفعل شيئا؟
- بل هو من فعل كل شيئ.. ولقد تقدمت ببلاغ إلى النقطة أتهمه بقتل والديا والإستيلاء على ممتلكاتهما. وإني لأطلب مثول زوجة العمدة أم مختار عند سيادتكم لسؤالها

رفع العمدة رأسه كأن أحدا قد وكزه وقال:

- ما دخل زوجتي في هذه المسائل.. هذه أفعال رجال وليس للحريم دور في هذا.

هنا صاح فيه وكيل النيابة بشدة وقال له:

- اخرس لا تتكلم بدون إذن.. هذه ليست أفعال رجال.. بل أفعال أبالسة وشياطين

ثم اشار لأحد الجنود بإحضار زوجة المتهم. ثم نظر إلى العمدة قائلا:

- جريمة ثالثة يا غنيمي؟ وما خفي كان أعظم..

كان سلامة الغنيمي في حالة لا يرثى لها.. فهو لم يتوقع أبدا أنه سوف يقف في هذا الموقف بعد أن كان هو القاضي والجلاد.. أصبح الآن هو الفريسة والضحية.. ولكن ضحية لأعماله الشائنة وجبروته وقلاعه التي أصبحت في لحظة كبيت العنكبوت . فلم ينطق بحرف وظل على وضعه مطرقا برأسه إلى الأرض.

ثم فتح وكيل النيابة اللفافة التى أمامه بحرص دون أن يلمس شيئا.. كانت عينا حشاد مسلطة على يدي وكيل النيابة عندما وقعت عيناه على مابداخلها. تغير لون وجهه وأصابه الإرتباك.. فنظر إليه وكيل النيابة قائلا:

- إيه يا حشاد.. أمازلت تصر على الإنكار.. كلها ساعات ونرسل هذه اللفافة إلى الطبيب الشرعي كي يقول لنا عما فيها من بصمات ودماء.. اعترف كي لا تحمل الجريمة كلها على عاتقك..

بدأت مقاومة حشاد وإصراره على التقيد بأقواله تنهار تدريجيا بعدما رأى سلاح جريمته وقميصه الملطخ بدماء الضحية.. فبكى بصوت عال وأخذ يسرد أقواله مرة أخرى:

- أنا إنسان لا يعرف أما أو أبا غير الشيخ عودة الذي قدم إليّ كل شيء من رعاية وعمل ومكان أبيت فيه وجعلني كأبنه.. وقد تحملت الكثير من صلفه وغروره وأهانته لى في كل مناسبة. حتى أتى بى إلى هذه القرية بعدما تعرف على ابراهيم التهامي في الأسكندرية.. وقد حلمت بالثراء من وراء هذه القرية فكنت أعد الزبائن له وأجهزهم نفسيا للعب بهم والتحكم في عقولهم وجعلهم يدفعون له كل ما يطلبه منهم.. حتى أتى ابراهيم التهامي في ليلة واتفق مع عودة كي يتخلص من الأستاذ عبد العال.. في بادئ الأمر رفضت ولكن عودة نهرني وهددني بأنه سيسلط عليّ الجن والعفاريت..

فضجت القاعة بالضحك من كلماته.. ولم يصمتوا إلى بعدما سمعوا دقات يد وكيل النيابة على الطاولة. وأشار إلى حشاد أن يكمل حديثه. نظر إليهم حشاد وقال:

- إنكم تضحكون من كلامي.. ولكنكم لم تروا ما كنت أشاهده.. إنه جبار.. كان يبث الرعب في أعماقي عندما ينظر إليّ غاضبا.. فلم أرفض ما طلبه مني وقد أغدق عليّ بالكثير من الأموال ووعدني أن أمري لن ينكشف أبدا..
- وكيف قتلت عبد العال أفندي؟
- لقد ترقبته عدة أيام.. كان يأتي من القرية المجاورة في نفس الموعد بعدما ينتهي من عمله.. ويسير في الطريق يحمل حقيبته متجها إلى قريته.. فتربصت به خلف شجرة حتى كنت خلفه وضربته بالجاكوش ضربة واحدة على رأسه من الخلف..

وحملتـه سـريعا ووضـعته فـي المكـان المتفـق عليـه فـي أرض الزيان.

هنـا تـنفس عصـام الصـعداء. فقد اكتملت جوانـب القضـية.. ولكـن هنـاك قضية أخرى وهـي قضـية بهلول.. فـي هذه اللحظـة دخـل الجندي وأدى التحية العسكرية وقال:

- زوجة المتهم بالخارج يا فندم
- أدخلها بسرعة.

دخلت زوجة العمدة وهي تغطي رأسها وصدرها بشال أسود.. ثم سألها عن اسمها وعلاقتها بالعمدة.. ثم قال:

- ماذا تعرفين عن " ثم نظر في الأوراق التى أمامه ".. المدعو محمد خلف وزوجته روحية خالد..

تلعثمت زوجة العمدة وقالت:

- من هؤلاء يا سعادة البيك.. أنا لا أعرف شيئا عنهم..

ثم أشار إلى بهلول وقال لها.

- أتعرفين من هذا؟
- إنه بهلول عبيط القرية.
- إن بهلـول يتهمـك بمشـاركة العمـدة ورجالـه فـي قتـل والديـه والاستيلاء على أموالهم
- يـا سعادة البيك.. إنـه ولـد عبيط ومجنـون ولا يفقـه شـيء كيـف يتهمني

- ما رأيك يا بهلول.. في هذا الكلام

عندما تكلم بهلول خبطت امرأة العمدة بيدها على صدرها ثم قالت بعفوية

" العبيط بيتكلم ".. ثم مدت يدها بطريقة لا إرادية على صدرها وكأنها تخفي شيئا

قال بهلول:

- أسالها يا بك.. لماذا ترتدي قلادة أمي ومن أين حصلت عليها؟

قال وكيل النيابة..

- اخلعى القلادة التى في رقبتك واحضريها هنا

أسقط في يدها ولم تعرف كيف تتصرف فمدت يدها خلف رقبتها وخلعت القلادة وقالت:

- هذه هدية من زوجي ولا علم لي من أين اشتراها

هنا أخرج بهلول صورة أمه وهي ترتدي نفس القلادة وقدمها لهم.

طابق وكيل النيابة بين الصورة والقلادة ثم دفعها للجالسين بجواره فأكدوا على مصداقية بهلول.. ثم نظر إلى العمدة وقال له:

- هيه يا سلامة... اتعترف أم لا. ومن هم شركائك..

أدرك سلامة أن المعبد قد انهار عليه وعلى سلالته وأنه لن تقوم لهم قائمة مرة أخرى وأن أراضيه وأمواله ستتم مصادرتها وإرجاعها إلى

أصحابها.. وأن الإعدام هو ما ينتظر.. فقال بصوت خانع ذليل.. سأعترف بكل ما اقترفته في حياتي وبكل من اشتركوا معي.

أشار الضابط عصام إلى سمير التهامي الذي فهم الإشارة.. فسحب بهلول وخرجا من القاعة.. حتى وصلا إلى بوابة الدوار.. فانتفض الجمع الجالس أمام الدوار فإذا بهم يرون سمير الزيان بملابس تشبه تماما ملابس بهلول.. يصطحب بهلول حتى وقف أمامهم مباشرة.. وقال لهم:

- هذا أخوكم وابنكم بهلول.. سوف يتكلم معكم.

ضحك الجمع المتجمهر ولسان حالهم يقول كيف لهذا العبيط المتعثر في كل الحروف أن يتكلم... فانتظر بهلول حتى ساد الصمت مرة اخرى وقال:

- أهلى واخوتي.. أنا سعد بن المرحوم محمد خلف والمرحومة روحية.. الذان توفيا في حادثة القطار.

هنا ضج الحاضرون بالتهليل والتكبير ما هذه المعجزة التي حدثت...

استطرد بهلول الكلام..

- لقد شفيت من حالتى وانا صغير ولكن كان يجب أن أعيش في هذا الجلباب وهذه الحالة مدة عشرون عاما حتى أقتص ممن خرب بيتي وقضى على أهلى.. وقد عاهدت الله ألا أرى ظلما ولا أتحرك فأرجو أن تتقبلوني بصورتي الحقيقية.. ساد التهليل والتصفق والإعجاب بهذا الشاب الصبور ثم تكلم سمير:

- كما ترون يا أهل قريتي الطيبين.. أنا سمير الزيان.. وليس قرين بهلول.. وليس بهلول كما تظنون.. وتقولون عليه.. مبروك وصاحب خطوة... إلى متى سيتحكم الخوف من قلوبنا ونصدق أكاذيب وأساطير فرضت علينا حتى جعلتنا نحبس أنفسنا في سياج الخوف لا فرار منه.. إلى متى نخاف الظلم والظلام والظالم.. لقد حبس الخوف هذا المسكين لسنوات كثيرة دون أن يستمتع بأيامه وشبابه.. وحبسكم أنتم أيضا طوال حياتكم.. لقد اعترف الجناة بجرمهم وسوف ينالون عقابهم.

هلل أهل القرية بحماس وأخذوا ينادون بصوت عال بالتحرر من الخوف:

لا خوف بعد اليوم.

لا ظلم بعد اليوم... وينادون بمعاقبة الأشرار حتى كادت أن تكون مظاهرة لولا تدخل سمير بتهدئتهم فنظروا إلى بعضهم البعض وكأنهم يكتشفون أنفسهم لأول مرة وقد لمعت عيونهم وكأنما استيقظوا للتو من ثبات عميق.

بينما كانت الابتسامة تزداد على وجه فاطمة ورفعت عائشة يديها إلى السماء تدعو الله أن يحفظ رجلها.. وارتفعت الزغاريد من نساء القرية... أما رجاء فقد وكزت فاطمة بكوعها وابتسمت هي الأخرى.

كانت كل الجوانب مكتملة للجرائم بين يدي النيابة.. فوجهت لكل واحد منهم الإتهام المناسب لجريمته.. حتى وصل إلى ابراهيم التهامي فقال له:

- أما أنت يا ابراهيم فسوف تنال عقابك على كل ما اقترفته من جرائم سرقة واعتداء وارهاب لأهل القرية.. فالشكاوي الكيدية التى كنت تقدمها فيهم قد انقلبت عليك بشكاوي حقيقية تم البحث فيها..

فنظر إليه إبراهيم نظرة استخفاف وكأنه يقول له " ما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.. وهز رأسه كأنه لا يبالي فهو ميت ميت.. ولكن وكيل النيابة لم يفوت هذه النظرة أو رد الفعل.. فقال له

- أحب أن اقدم لك مفاجأة.. فمرضك المزعوم هو من تدبيرنا.. فحشاد الذي أبلغك سبب مرضك هو سمير الزيان.. والطبيب الذي ذهبت إليه والتحاليل الطبية كانت من تدبيرنا ولن تموت قريبا كما تظن وسوف تعيش لتذق طعم العذاب والمهانة.. أما تدبيرك فقد رد عليك " ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله "

ثم نظر إلى ضباط المباحث وأمر بتحويل المتهمين للمحاكمة وسرعة القبض على عودة المصري

لم تجد القوة المكلفة بالقبض على عودة أي أثر له سواء في منزله أو في القرية بالرغم من الحصار المشدد لها وكأنه تبخر في الهواء.. مثلما هبط على القرية مثلما خرج منها لم يعلم أحد عنه شيئا.. وما زال البحث مستمرا

تمت بحمد الله

التعريف بالكاتب

عطا عفيفي

من مواليد منيا القمح محافظة الشرقية سنة ١٩٦١

خريج كلية التربية الفنية بالزمالك

يعمل مدرسا للفنون

أديب وفنان تشكيلي

صدر له الكتاب الأول مجموعة قصصية بعنوان " زهرة الخمسين " عن دار إبداع للنشر

له مجموعة قصصية أخرى بعنوان " شموس لاتعرف الإشراق " (تحت الطبع)

حروف من نور

١٠ برج الاشراف شارع الهداية المريوطية فيصل الجيزة

"جمهورية مصر العربية"

الايميل yavinour@gmail.com

ت/ ٠١٠٠٨٢٨٩٦٦٧ (٠٠٢)